

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي



قسم: العلوم الإنسانية

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

المؤسسات الدينية والعلمية بتونس ودورها في مواجهة السياسة الدينية والثقافية الفرنسية (1881-1956)

مذكرة مكملة تدخل ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر

في التاريخ تخصص تاريخ المغرب العربي المعاصر

إشراف الأستاذ
د. عثمان زقب

إعداد الطالبة:
عائشة بن يوسف

لجنة المناقشة

المؤسسة الأصلية	الصفة	الرتبة	الأستاذ(ة)
جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي	رئيسا	أستاذ مساعد - أ -	سعيدة عمان
جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي	مشرفا ومقررا	أستاذ محاضر - أ -	عثمان زقب
جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي	مناقشا	أستاذ محاضر - أ -	عبد القادر كركار

السنة الجامعية 1439-1440هـ / 2018-2019م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي



قسم: العلوم الإنسانية

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

المؤسسات الدينية والعلمية بتونس ودورها في مواجهة السياسة الدينية والثقافية الفرنسية (1881-1956)

مذكرة مكملة تدخل ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر

في التاريخ تخصص تاريخ المغرب العربي المعاصر

إشراف الأستاذ

د. عثمان زقب

إعداد الطالبة:

عائشة بن يوسف

لجنة المناقشة

المؤسسة الأصلية	الصفة	الرتبة	الأستاذ(ة)
جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي	رئيسا	أستاذ مساعد -أ-	سعيدة عمان
جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي	مشرفا ومقررا	أستاذ محاضر -أ-	عثمان زقب
جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي	مناقشا	أستاذ محاضر -أ-	عبد القادر كركار

السنة الجامعية 1439-1440هـ / 2018-2019م

قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ هود: ٨٨

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۖ ﴿٢٦﴾ وَأَخْلُذْ

عُقْدَةَ مِّنْ لِّسَانِي ۖ ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۖ ﴿٢٨﴾ طه: ٢٥ - ٢٨

صدق الله العظيم

الاهداء

إذا كان الإهداء يعبر ولو بجزء من الوفاء، فالإهداء إلى نبع الحنان جدي، نوري عيني حفظه الله وأطال
الله في عمره

إلى من كان دعاؤها سر نجاحي: أمي، أمي، أمي

إلى من كلفه الله بالهبة والوقار وعلمي العطاء دون الانتظار إلى الذي أحمل اسمه بكل افتخار، والذي
حفظه الله

إلى من قال فيهم الشاعر:

أخاك فمن لا أخاله**كساع إلى الهيجاء بغير سلاح

إلى جدي وجدتي وإلى كل الأهل والأقارب

إلى كل الأصدقاء الأوفياء والزملاء الأعزاء التي جمعتني بهم الحياة: آسيا، خولة، دلال، زهرة، آمال، سارة ،
رزيقة ، زينب ، يمينة، مريم، فاطمة.

إلى كل من هو في قلبي وسقط سهوا من قلبي ولم تذكرهم مذكري

إلى كل متصفح هذه المذكرة وانتفع بها وتذكرني بدعائه

إلى كل من يعرفني ولا أعرفه

أهدي ثمرة جهدي

شكر وعرفان

الحمد لله نحمده وهو المستحق للحمد والثناء ونستعين به في السراء والضراء ونثوكل عليه في جميع حالاتنا، ونصلي ونسلم على خير خلق الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه أجمعين ومن تبع هديه إلى يوم الدين

وعملا بقوله صلى الله عليه وسلم: "من لم يشكر الناس لم يشكره الله"

أتقدم بأسمى عبارات الشكر والتقدير إلى كل من علمَ علماً به ينتفع وأدباً به يرتفع

بدءً من معلمي الابتدائي وصولاً إلى أساتذتنا الكرام بشعبة التاريخ في جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي

تحية عطرة وشكراً خاصاً للأستاذ المشرف "عثمان زقب" الذي أفادني بنصائحه وتوجيهاته وسعة صدره طيلة انجاز هذه المذكرة، راجية من المولى عز وجل أن يكمله بالتوفيق وأن يكتب جمده في ميزان حسناته

كما أشكر الأستاذ الدكتور محمد السعيد عقيب الذي ساعدني وغمرني بالعديد من النصائح والإرشادات ولم يخل عليّ بما لديه من مراجع تفيد مذكرتي.

وإلى رفيق دربي وشريك عمري جمال الذي كان سندي المتين طوال إعداد مذكرتي ربي يحفظه ويحميه.

وإلى كل أساتذة جامعة تونس الشقيقة أخص بالذكر الأستاذ محمد ناجي، الطاهر المناعي، الأزهر الصخراوي، محمد ضيف الله، عبد اللطيف الهرماسي، قطب منير بودالي، لهم كامل الود والتقدير.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى الاستاذ الدكتور عبد الرشيد هميسي بكلية الآداب واللغات بجامعة الوادي، الذي حمل عني تصحيح بعض الأخطاء اللغوية .

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى أساتذتنا الكرام أعضاء لجنة المناقشة على خالص جهدهم المبذول في قراءة المذكرة وخالص شكري من أجل مناقشتها.

إلى الذين أمدوني بالعون والنصح والإرشاد طيلة إعدادي لهذا العمل أخص بالذكر الأستاذ مصطفى لمن لعويد، كما لم يخلوا عليّ بالعديد من المراجع، جعلها الله في ميزان حسناتهم ومن بينهم:

حمو دريد _ البشير عامرة _ عوادي محمد.

دمتم ذخراً لخدمة العلم والمعرفة، وإلى كل من أعانني على إعداد هذه المذكرة من قريب أو بعيد.

مع الاعتذار لمن أغفلة فضله وخيره عني سائلة المولى عز وجل أن يجزي الجميع خير الجزاء.

قائمة المختصرات

المختصر	الكلمة
=	تعميش مستمر
ج	الجزء
د.ط	دون طبعة
د . ب.ن	دون بلد نشر
د. ت. ن	دون تاريخ نشر
د. د. ن	دون دار نشر
د. ص	دون صفحة
ص ص	مجموعة صفحات
ط	طبعة
م	ميلادي
مج	مجلد
P	Page

مقدمة

تميزت نهاية القرن التاسع عشر بتزايد التنافس بين القوى الاستعمارية للاستحواذ على المستعمرات، وفي هذا الإطار فرضت فرنسا الحماية على تونس سنة 1881م بعد احتلالها لمدينة الجزائر سنة 1830م، حيث تم تنصيب حمايتها على تونس بعد حصولها على التزكية من الأطراف الأوروبية المتصارعة على نفوذ المنطقة، وذلك من خلال مؤتمر برلين المنعقد سنة 1878م لتقاسم مناطق النفوذ بإفريقيا وسط الهيمنة تخوفا من التصادم، حيث أن الحماية الفرنسية جاءت في أعقاب أزمة المديونية التي فتحت المجال لبسط الوصاية المالية الدولية على تونس، تمهيدا للتوقيع على معاهدة "باردو" سنة 1881م، التي جردت تونس من سيادتها وأصبحت فرنسا تتحكم في كل شؤون البلاد وتمارس كل الأساليب السياسية من أجل تحقيق مطامعها، فجاءت معاهدة "المرسى" سنة 1883م المكملة لمعاهدة باردو، حيث مكنتها من السيطرة الكاملة على البلاد التونسية والتدخل في جميع ميادينها خاصة العلمية والدينية التي سلطت عليها سياستها الاستعمارية لتهميش محتواها.

دافع الشعب التونسي وخاصة النخبة المثقفة خريجي المؤسسات الدينية والعلمية منذ الوهلة الأولى عن أرضه ومقوماته الأساسية ولم يرض بالوجود الفرنسي، فظهرت المقاومة الشعبية كأول رد فعل حيث مزجت المقاومة بين النضال السياسي والثقافي، ذلك لأن الفرنسيين في تونس لم يتوقف احتلالها عند حد معين ولم يقتصروا في أطماعهم على جانب واحد، بل استعملوا لتحقيق مطامعهم الاستعمارية أساليب كانت لها انعكاسات السلبية والعميقة في نفسية الشعب التونسي مما زاد في حدة وشدة المواجهة التي استمرت متسلسلة بتسلسل السياسة الاستعمارية نفسها خاصة في المجال الديني والثقافي؛ إذ كلما أقدمت الإدارة الاستعمارية على تنفيذ مشروع معين إلا وقوبل بمواجهة ثقافية شرسة، وكلما قامت هذه الإدارة بعمل ما إلا وجوبت بموقف مضاد.

امتد هذا الكفاح من الحماية إلى غاية الاستقلال، معتمدا على نخبة وطنية كان لها الدور الكبير في التوعية والإصلاح، والتي وقفت في وجه المشاريع الاستعمارية التي حاولت

طمس الشخصية التونسية، ونظرا لقيمة هذه المؤسسات الدينية والعلمية حددت موضوع بحثي الذي يتمثل في:

"المؤسسات الدينية والعلمية بتونس ودورها في مواجهة السياسة الدينية والثقافية الفرنسية(1881-1956).

1- أسباب اختيار الموضوع:

لقد وقع اختياري على هذا الموضوع لجملة من الأسباب الذاتية والموضوعية.

أ- الذاتية: تتمثل في رغبتني الشخصية لدراسة المواضيع ذات الأبعاد الدينية والثقافية.

ب: الموضوعية: تتمثل في قلة الدراسات التي تتناول هذه المواضيع، وإن وجدت فهي عبارة عن دراسات جزئية.

بالإضافة إلى ذلك العمل على إثراء الدراسات في هذا المجال والرغبة في التعرف على دور هاته المؤسسات الدينية والعلمية في الدفاع عن البلاد التونسية خلال الفترة الهامة من تاريخها.

2- أهمية الموضوع:

تكمن أهمية الموضوع في كونه يسלט الضوء على الجوانب التي ظلت غامضة حول آثار السياسة الاستعمارية ودورها في بروز المقاومة الثقافية التي قادتها المؤسسات الدينية والعلمية على إثر الأساليب الاستعمارية التي مورست ضدها.

3-الإشكالية:

وانطلاقاً من هذا نطرح الإشكالية التالية والرئيسية لهذا الموضوع: فيم تتمثل المؤسسات الدينية والعلمية في تونس خلال فترة الحماية الفرنسية (1881-1956)؟ وما الدور الذي لعبته في مواجهة السياسة الدينية والثقافية الفرنسية؟.

- أما عن الأسئلة الفرعية:

- كيف كانت السياسة الدينية والثقافية الفرنسية المنتهجة؟

- ما هي أشكال مواجهة المؤسسات الدينية والعلمية لهذه السياسة الفرنسية؟

- كيف كان موقف المؤسسات الدينية والعلمية من السياسة الفرنسية؟

- ما هي مظاهر هذه السياسة الدينية والثقافية الفرنسية؟

4- حدود الدراسة:

أما بخصوص الفترة الزمنية المدروسة من سنة 1881م إلى سنة 1956م، أي بمعنى من بداية انتصاب الحماية الفرنسية وتوقيع معاهدة باردو إلى غاية إلغاء الحماية ومنح الاستقلال التام للتونس سنة 1956م.

5-المنهج المعتمد:

ومن بين المناهج المعتمدة لهذه الدراسة هو المنهج التاريخي كونه ضروريا في كل دراسة تاريخية ويسمح لنا بعرض الوقائع كرونولوجيا، وخاصة فيما يتعلق باستعراض المؤسسات الدينية والعلمية، وكذلك عرض مراحل السياسة الفرنسية في تونس.

6- خطة البحث:

للإجابة على الإشكالية المطروحة والإحاطة بالموضوع أكثر في مختلف جوانبه فقد عالجته وفق خطة متكونة من مقدمة وثلاثة فصول. ففي الفصل الأول تناولت التعريف بالمؤسسات الدينية والعلمية بتونس قبل وبعد فرض الحماية الفرنسية، في حين الفصل الثاني تطرقت إلى السياسة الفرنسية الدينية والثقافية، أما عن الفصل الثالث والأخير فقد تضمن دور المؤسسات الدينية والعلمية في مواجهة السياسة الدينية والثقافية الفرنسية.

وأنهت البحث بخاتمة تتضمن أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة، كما دعمت هذه الدراسة بمجموعة من الملاحق لتوضيح وإثراء هذا الموضوع.

7- مصادر ومراجع البحث:

تتوعت المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في انجاز هذا البحث متضمنة كتب بالعربية بالإضافة إلى مقالات ومجلات ودوريات ورسائل جامعية تفاوتت أهميتها حسب علاقتها بالموضوع ومن أهم المصادر:

- "تونس الشهيدة" لمؤلفه عبد العزيز الثعالبي، من أهم المصادر التي اعتمدت عليها في دراسة السياسة التعليمية الفرنسية في تونس. أما كتاب "هذه تونس" لمؤلفه الحبيب ثامر احتوى على العديد من السياسة الفرنسية في كافة المجالات ومن بينها السياسة التعليمية والدينية التي كانت محور دراستي. والمصدر الآخر المهم كتاب "الحركة الأدبية والفكرية" لمحمد الفاضل بن عاشور الذي أفادني كثيرا في التعريف بالمؤسسات الدينية والعلمية بتونس قبل وبعد فرض الحماية الفرنسية. أما كتاب "حياة كفاح"، ج1 لمؤلفه أحمد توفيق المدني الذي تضمن البعض من جوانب المؤسسات العلمية في تونس وخاصة المؤسسات الأدبية والفكرية.

أما المراجع المعتمدة:

- "الطلبة الجزائريون وجامع الزيتونة 1900 - 1956م"، ج1، لمؤلفه خير الدين شترة.
- "المثقفون التونسيون والحضارة الغربية"، لمؤلفه الطاهر المناعي.
- "الزيتونيون دورهم في الحركة الوطنية التونسية 1904 - 1945م"، لمؤلفه علي الزيدي.

8- صعوبات البحث:

من أهم الصعوبات التي واجهتني لدراسة هذا الموضوع هو طول الفترة الزمنية المعنية بالدراسة وتشعبها، وكذا محاولة الفصل بين ما هو سياسي وثقافي لتداخل وكثرة الأحداث طيلة هذه الفترة.

- شساعة الموضوع الذي يحوي بداخله جزئيات دينية وثقافية تحتاج أن تكون مواضيع مذكرات أخرى (جامع الزيتونة، المدرسة الصادقية والخلدونية، الصحافة، الحركة الأدبية والفكرية، السياسة الاستعمارية الفرنسية).

- عدم الحصول على المصادر الأصلية التي تمس الموضوع.

- شح ما كتب عن الموضوع وقلة المادة العلمية في بعض عناصر الموضوع تكاد تكون إشارات فقط في بعض المراجع العربية .

وفي الختام أرجو أن أكون قد وفقت في الإلمام والإحاطة بمعظم جوانب هذا البحث فإن وفقت فمن الله وإن أخطأت فلي شرف المحاولة والتعلم.

الفصل الأول

تعريف المؤسسات الدينية والعلمية بتونس قبل وبعد فرض

الحماية الفرنسية

أولاً: واقع المؤسسات الدينية والعلمية بتونس قبل فرض الحماية الفرنسية

- 1- التعليم التونسي التقليدي.
- 2- التعليم التونسي العصري.
- 3- التعليم الخاص بالأوروبيين.

ثانياً: التعريف بالمؤسسات الدينية بعد فرض الحماية الفرنسية

- 1- جامع الزيتونة.
- 2- مؤسسة الزوايا والطرق الصوفية.
- 3- مؤسسة الأوقاف والأحباس.

ثالثاً: التعريف بالمؤسسات العلمية

- 1- المدرسة الصادقية.
- 2- المدرسة الخلدونية.
- 3- جمعية قداماء الصادقية.
- 4- النوادي العلمية والفكرية.

أولاً: واقع المؤسسات الدينية والعلمية قبل فرض الحماية الفرنسية:

شهدت المؤسسات الدينية والعلمية في تونس قبل الحماية الفرنسية في ظل الحياة الثقافية للمجتمع التونسي ازدهارا كبيرا في شتى مجالاتها، فكانت المؤسسات الدينية والعلمية وجه لعملة واحدة وهو النهوض بالبلاد حضاريا وثقافيا، وقد اشتمل دورها على التعليم بكافة أطواره، وكانت معاهدها تستقبل الطلبة التونسيين والعرب والمسلمين من عدة جهات، كما اشتهر منها العديد من العلماء أمثال ابن الجزار والناقدين الأدبيين ابن شرف وابن رشيق والمؤرخ ابن خلدون والفقهاء ابن عرفة¹.

كان لجامع الزيتونة دور هام وممتاز في نشر هذه الثقافة وكان مركزا لماضيه من مكتبة بها عشرات الآلاف من الكتب القيمة وشهرة أساتذتها، حيث فتحت أبوابها لكل طلاب العلم والمعرفة سواء لمواصلة التعليم أو لحضور المحاضرات².

كما شهدت تونس بوادر نهضة ثقافية إصلاحية في منتصف القرن 19 وتأثر أحمد باي³ بالحركات الإصلاحية في المشرق العربي مما فتح أمامه باب الإصلاحات حتى شملت المجال العلمي، كما قسم التعليم في تونس إلى ثلاثة أقسام تعليم تونسي تقليدي وآخر عصري وتعليم أوروبي يدرس ضمن المؤسسات الدينية والتعليمية⁴.

1- التعليم التونسي التقليدي: هو بالأساس تعليم ديني يقوم على تدريس القرآن والحديث والفقهاء لكنه كان يجمع إلى جانب هذه المواد الشرعية مواد أخرى عقلية مثل التاريخ والجغرافيا

¹ - عبد العزيز الثعالبي، تونس الشهيدة، ط1، ترجمة وتقديم، سامي الجندي، دار القدس، بيروت، 1975م، ص 57.

² - نفسه، ص58.

³ - أحمد باي: هو أحمد باي بن مصطفى، أول مشير على تونس سنة 1837م حيث أدخل العديد من إصلاحات من بينها إصلاحات عسكرية وإنشاء المدرسة الحربية بباردو وإصلاحات اقتصادية، زار أوربا واقتبس منها أساليب حديثة أدخلها على جيشه، كما منع تجارة الرق، وسافر إلى باريس، توفي سنة 1855م. ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ط1، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، 2002م، ج1، ص ص 057 - 258.

⁴ - جمعة عليوي فرحان الخفاجي ووسام هادي عكار عظيم، "السياسة الفرنسية حيال تونس (1881 - 1913)", مجلة الأستاذ، بغداد، العدد 214، 2015م، ص 265.

والأدب والفلسفة التي كانت تصقل ذهنية الطالب وتؤهله للتعامل مع الحياة ونذكر من بين هذه المؤسسات التي يلقي فيها هذا النوع من التعليم:

أ- **الكتاتيب:** كانت منتشرة في كامل أنحاء البلاد التونسية فمثلا بلغ عددها في القيروان 650 كتابا حيث يتردد عليها الأطفال الصغار لحفظ القرآن، وكان يدرس بها المؤدب الذي يقوم بتلقين هؤلاء الأطفال ما تيسر من القرآن الكريم، نظرا للدور الذي تمثله الكتاتيب في صقل موهبة الطفل من خلال تعلمه طريقة الحفظ وتنمية ذاكرته¹.

الجدول الإحصائي يوضح تواجد الكتاتيب بمختلف مناطق الإيالة²:

المنطقة	عدد الكتاتيب	عدد التلاميذ
تونس	22	639
القيروان	65	1635
سوسة	45	893
المنستير	19	427
صفاقس	23	650
جربة	39	1059
قفصة	23	270
توزر	26	564
نفطة	37	366
نفزاوة	11	171
الوطن القبلي	42	1268

ولا يعني انتشار الكتاتيب في تونس أنها كلها في حالة جيدة من حيث هي فضاء لتلقي التعليم، ذلك أن أبنية عددٍ منها هشة، قليلة التهوية رثة المرافق والمفروشات، وهذا ما يرجع

¹ - ريم غانمي، الحضور المسيحي بتونس من 1881م إلى 1930م، (رسالة شهادة ماجستير)، إشراف نصر الجويلي، المعهد الأعلى لأصول الدين، جامعة تونس، 2005 - 2004م، ص 46.

² - نفسه، ص 50.

سببه إلى سوء تصرف وكيل الأوقاف الذي يزور الحسابات ليستحوذ على مداخيل الأوقاف العمومية ولهذا السبب بادر خير الدين لما تولى الوزارة الكبرى في سنة 1873م، ببعث إدارة الأوقاف سنة 1874م، سميت فيما بعد "جمعية الأوقاف"¹، وذلك لتجنب الاختلاس والوضع الفوضوي لموارد الأوقاف العمومية².

أما فيما يخص تنظيم التعليم الابتدائي في الكتاتيب، فقد صدر قرار في فيفري سنة 1876م يتعلق بضبط مقاييس دقيقة في اختيار مؤدبي الكتاتيب إذ أصبحوا خاضعين لتزكية الحكومة، ولتنفيذ هذا القانون تشكل في كل بلدة، لجنة تتألف من عضوين: أحدهما من المجلس الشرعي، والآخر من أمين المؤدبين بالمنطقة، وأوكلت إليهما مهمتان هما: ضبط قائمة بالمؤدبين، والقيام بزيارة تفقد منتظمة للكتاتيب³.

ب- المساجد:

تزخر البلاد التونسية بالعديد من المساجد والجوامع والتي تصل إلى حوالي 500 مسجدا والتي تغطي كل المحطات التاريخية والتي كان من أشهرها جامع القيروان والزيتونة حيث كان هذا الأخير مقصد لطالب العلم والعبادة، فكانت تدرس به العلوم الشرعية كال تفسير والفقهاء وأصوله والحديث واللغة والنحو وكانت منهجية التدريس فيها تقوم على التلقين بهدف تحفيظ الطالب أكثر ما يمكن من العلوم وأكثر ما يمكن من المسائل ويعد جامع الزيتونة من أهم المساجد التعليمية في تلك الفترة⁴.

¹ - جمعية الأوقاف: نشأت بمقتضى أمر صادر سنة 1785م بإشارة من الوزير الأكبر خير الدين، وكان أول رئيس لها الشيخ محمد بن مصطفى بيرم، وقسمت الأوقاف إلى قسمين: الأول: الأوقاف الأهلية وهي التي حبست على ذرية الواقف، والآخر: الأوقاف التي حبست على أعمال البر والإحسان، ومن بين مهام جمعية الأوقاف تمويل جهات عدة والقيام بوظائف متنوعة منها: بناء الأسوار والأبراج وترميمها، دفع مرتبات المدرسين، دفع مرتبات لأهل المجلس الشرعي، تمويل مدارس السكنى للطلبة الزيتونيين. ينظر: الموسوعة التونسية المفتوحة، جمعية الأوقاف، www.mawsouaa.tn

² - ريم غانمي، المرجع السابق، ص 47.

³ - الموسوعة التونسية المفتوحة، الكتاتيب قبل وبعد الحماية الفرنسية، www.mawsouaa.tn.

⁴ - ريم غانمي، المرجع السابق، ص 47.

وبالرغم من الإصلاحات التي قام بها العديد من المفكرين المصلحين أمثال خير الدين التونسي؛ فقد ظل هذا النوع من التعليم تعليماً تقليدياً في مناهجه ومواده، مما أدى إلى ظهور نوع جديد وهو التعليم العصري¹.

2- التعليم التونسي العصري:

تفطنت النخبة الإصلاحية إلى أن ما حققه الغرب من تقدم وتطور في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بفضل ما اكتسبته من العلوم العصرية والمستحدثة والتي تفتقر لها البلدان العربية الإسلامية، فدعوا إلى إنشاء مؤسسات علمية عصرية تدرس فيها العلوم الحديثة واللغات الأجنبية إلى جانب العلوم الشرعية، ومن هذه المؤسسات التي وقع إحداثها²:

أ- المدرسة الحربية بباردو³:

هي أول مدرسة عصرية إصلاحية أسسها أحمد باشا في 5 مارس 1840م بضاحية باردو فتعد مكتبا حريبا لتعليم ما يلزم من فنون القتال وتخرج منها مهندسين والموظفين. وقع جلب ضابط إيطالي يسمى كاليغاريس "Caligaris"⁴ ليشراف على تعليم هؤلاء الطلبة، كما كان يدرس فيها بعض اللغات الأوربية وبعض العلوم الأخرى مثل الرياضيات والكيمياء والهندسة إلى جانب تعليم اللغة العربية وتحفيظ القرآن⁵.

¹ - ريم غانمي، المرجع السابق، ص ص 48 - 49.

² - نفسه.

³ - كما سميت أيضا باسم "مكتب المهندسين" وكذلك "مكتب العلوم الحربية".

⁴ - يدعى لوي كاليغاريس ولد سنة 1808م بمدينة تورينو بإيطاليا، حيث قدم إلى تونس سنة 1834م عمل كمدرّب لنواة الجيش النظامي في عهد مصطفى باي (1835 - 1837م) ثم عين مديرا للمدرسة باردو ودرس فيها الرياضيات والعلوم العسكرية، ثم عاد إلى إيطاليا بعد الوحدة الإيطالية حيث عين أستاذا للغة العربية بمدينة تورينو، توفي سنة 1871م. ينظر: الشيباني بن بلغيث، أبحاث في تاريخ تونس الحديث والمعاصر، ط1، مكتبة علاء، صفاقس - تونس، 2008م، ص 24.

⁵ - أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان، مج2، الدار العربية للكتاب، 1999م، ج4، ص36.

كما درس بها الشاعر التونسي محمود قبادو¹ اللغة العربية والتربية الدينية، فكانت هذه المدرسة نافذة اطلعت من خلالها النخبة التونسية على الحداثة الغربية، لكن أغلقت هذه المدرسة أبوابها سنة 1869م².

3- التعليم الخاص بالأوروبيين:

لقد ظهر التعليم الأوربي في البلاد التونسية منذ وقت مبكر، وذلك لرغبة الجاليات المتواجدة في البلاد لتعليم أبنائها، حيث ظهرت المدارس الفرنسية والإيطالية والمالطية واليهودية. فنخص بالذكر المدارس الفرنسية التي بلغ عددها 20 مدرسة ومن بين هذه المدارس نذكر: مدرسة القس بورغاد التي أصبحت سنة 1845م معهد القديس لويس "saint Louis" ومدرسة إخوان المذهب المسيحي التي أنشأت مدرستين الأولى سنة 1859م بالحاضرة والثانية سنة 1871م بحلق الوادي، ومؤسسات أخوات القديس يوسف التي أنشأت سنة 1840م مدرستين ابتدائيتين بالحاضرة³، فضلا عن إحداهن لمستوصف ومستشفى صغير بنهج سيدي صابر، وقد كانت الدراسة في المدرسة الأولى مجانية وفي الثانية بالمقابل⁴.

وأما عن بقية المؤسسات الدينية فنجد رؤية التونسيين للإسلام رؤية ضيقة تقتصر معظمها على القضاء والقدر والمحافظة بشدة على تقاليد الأجداد والآباء الراضة لأي حركة

¹ - محمود قبادو: هو مصلح وشاعر تونسي ولد سنة 1821م بتونس، له العديد من الأعمال من بينها تعيينه مفتي المجلس الشرعي ثم قاضياً بباردو، توفي سنة 1871م. ينظر: الصادق الزملي، أعلام تونسيون، ط1، تقديم وتعريب، حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، صص 64 - 70.

² - محمد الفاضل ابن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية في تونس (في القرنين 13 - 14هـ/19 - 20م)، الرشيد للنشر والطباعة، تونس، 2009م. ص33.

³ - مشرفية مديحة، المدارس الحرة الفرنسية في البلاد التونسية 1886 - 1886م، (شهادة التعمق في البحث)، إشراف توفيق بشروفي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية شارع 9 أفريل، تونس العاصمة، ماي 1990م، ص49.

⁴ - العروسي الميزوري، التعليم في تونس منذ قيام الدولة الحسينية إلى انتصاب الحماية، (رسالة دكتوراه)، إشراف ابن حمدة، وسيلة بلعيد، المعهد الأعلى لأصول الدين، جامعة الزيتونة، تونس، 1994م، ص213.

تطورية لأنها في نظرهم بدعة، وخاصة أن المجتمع التونسي أغلبيه كان مالكيًا فهذا المذهب يتميز بالتشدد ويرفض الاجتهاد بعكس السلطة القائمة في تونس آنذاك التي كانت مذهبها حنفيًا وهو أقل تشدداً من مذهب الإمام مالك¹.

كان في تونس أربعة طرق صوفية أساسية منتشرة في أوساط المجتمع التونسي وهي القادرية والتجانية والرحمانية والسنوسية، وكانت منظمة تنظيمًا محكمًا ولشيوخها تأثير معنوي كبير في المجتمع التونسي، فكانت أغلبية التونسيين كانت تنتمي إلى إحدى هذه الطرق لأنه في اعتقادهم "من لا شيخ له، فالشيطان شيخه"².

أما عن مؤسسة الزوايا فكانت منتشرة عبر التراب التونسي حيث كان لها دور هام تقوم بنشر التعليم الديني المعرفي في كافة المناطق، حيث اعتقد التونسيون بأن لشيوخ الطريقة بركة لا حدود لها يستطيعون بها معالجة كل الأمراض سواء العضوية أو النفسية إلى جانب ما يقومون به من نشر للعلوم الدينية³.

ثانيًا: التعريف بالمؤسسات الدينية في تونس:

تعتبر المؤسسات الدينية في تونس من أبرز المعالم الإسلامية، والتي تمثل مورد رزق وتعليم لها تتمثل في جامع الزيتونة والزوايا والأوقاف وغيرها من المؤسسات الدينية الأخرى التي ظهرت على عاتقها المؤسسات العلمية مواكبة التطورات العصرية في مناهجها، وهي كالتالي:

¹ - عز الدين معزة، فرحات عباس والحبيب بورقيبة دراسة تاريخية وفكرية مقارنة 1899 - 200م، (رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر)، إشراف عبد الكريم بوصفصاف، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة منتوري، 2008 - 2009م، ص 68.

² - نفسه، ص 69.

³ - التليلي العجيلي، المرجع السابق، ص 40.

1- جامع الزيتونة:

يعتبر جامع الزيتونة¹ من أقدم معاهد العلم والتعبد بتونس وإفريقيا والعالم الإسلامي منذ تأسيسه فهو النواة الأولى للمجالس العلمية التي كانت يترنم فيها بقراءة القرآن الكريم وتلاوة الحديث الشريف، ويعتقد أن عبد الله بن الحباب هو الذي اختط هذا الجامع لما كان واليا على إفريقية²، كما يؤيد هذه الفكرة ابن الأثير في كتابه حيث يقول: "أن عبد الله بن الحباب دخل إفريقية في هذه السنة 735م"³.

وقد سمي بجامع الزيتونة، استنادا إلى الآية الكريمة ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾⁴.

وقد سمي بجامع الزيتونة لاشتهار البلاد التونسية بزياتينها، فتبرك الناس بتسمية مسجدهم بمسجد الزيتونة، ويبدو أن هذا الرأي هو الأقرب للصواب⁵.
وأول ما عرف من هذا الجامع صومعته الشهيرة، حيث قال صاحب المؤنس ((كان العرب ينزلون بإزاء صومعته، ويأمنون براهب كان يتعبد بها، حتى كانوا يقولون هذه البقعة تونس))⁶.

1 - ينظر الملحق رقم 01، ص 136.

2 - عبد الرحمن ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخير في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مجلد 3، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1968م، ص 404.

3 - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج 5، دار الكتاب العربي، بيروت، 1965م، ص 185.

4 - سورة النور، الآية 35.

5 - أبي عبد الله بن عثمان السنوسي، مسامرات الظريف بحسن التعريف، ط1، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج 3، ص 478.

6 - أبي عبد الله القاسم الرعيني القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تونس، ص 10.

وبالتالي أصبح جامع الزيتونة على مر العصور، مؤسسة دينية ثقافية لها هيبته، ارتبط بتاريخ تونس ومن هذا الجامع تخرج جموع من العلماء، كآل نيفر وآل عاشور آل بيرم، ومن الزيتونة تخرج متخصصون في الإفتاء والفقه والتفسير والسير والأصول والآداب¹.

أ- الزيتونة الجامعة:

لم يكن الجامع ليحتل المكانة العالمية لولا أنه كان قبلة طالب العلم فقد اكتسى صبغة الجامعة منذ تأسيسه وتثبيته كمركز للتدريس.

فتأسست هذه الجامعة على تقوى من الله ورضوان فهي أول مدرسة فكرية أشاعت روحا علمية، في تحصيل العلم، ومن أبرز من ذاع صيته في هذه المؤسسة العلمية هو "علي بن زياد" (مؤسسها)، وأسد بن الفرات، والإمام سحنون صاحب المدونة (على الفقه المالكي)².

ب- الزيتونة ونظام التعليم:

لقد وضع جامع الزيتونة خطة للتدريس، حتى يتسنى له إخراج جيل من طلبة العلم، فأخذ المشير أحمد باشا بتنظيم التعليم بجامع الزيتونة، لإدراكه فائدة تنظم التعليم وكافية المدرسين فرصد لهم أجورا تتناسب وتكاليف الحياة في رزقهم، فأمد التعليم وأهله بالإعانات الواسعة وسن له نظاما حيث ألقاه في اجتماع حضره الأعيان والعلماء وطلبة وعلق هذا البيان على باب من أبواب الجامع³.

¹ - محمد الخضر حسين، تونس وجامع الزيتونة، جمع وتحقيق علي الرضا، دار التونسية، تونس، 1971م، ص26.

² - عامر مريقي، جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين - دراسة تاريخية في مسيرتها النضالية - 1934 - 1947م، (مذكرة شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية)، إشراف مولود عويمر، قسم اللغة والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر 2، 2010 - 2011م، ص77.

³ - عامر مريقي، المرجع السابق، ص79.

وبعد وفاة المشير أحمد باشا خلفه المشير الثالث محمد الصادق باي¹ الذي أقر الإجراءات المتممة للأخذ بعين الاعتبار ما جاء في المعلقة الأحمدية بإشارة من بعض رجال دولته²، وفي عهده تم انتخاب خير الدين للوزارة الكبرى هذا الأخير انتخب بدوره لجنة من علماء الزيتونة ورجال الدولة أصدرت في عام 1876م أمرا مشتملا على 67 فصلا مبوية كما يلي: العلوم التي تدرس بالجامع ومراتبها ثلاثة:

*شؤون المدرسين والطلبة.

*أعمال المشائخ والنظار.

*طريقة تنظيم الامتحانات في آخر السنة الدراسية.

وقد عزز الوزير خير الدين هذا الإصلاح والتنظيم بإحداث وظائف ثلاثة، مستشار للمعارف بالوزارة الكبرى وبتعيين نائبين لهذا المستشار بجامع الزيتونة³.

وينقسم التعليم بجامعة الزيتونة لفرعين كبيرين، تعليم علوم الشريعة وتعليم العلوم الوضعية، أما العلوم الشرعية فهي: تفسير القرآن، والقراءات، والحديث، والتوحيد، والفقه، والفرائض... وغير ذلك⁴.

أما العلوم الوضعية فهي كالآتي: اللغة، والمعاني، والبيان، والأدب، والشعر، والمنطق، والتاريخ، والجغرافية، والحساب، والمساحة، وكل واحد من هذين التعليمين يجري في ثلاثة درجات ابتدائية ووسطى وعالية، فدروس الابتدائية تزاوّل بفرعي الجامع، وتمكن مزاولها من

¹ - محمد الصادق باي: ولد في 7 فيفري 1813م واعتلى العرش يوم 23 سبتمبر 1859 بعد وفاة المشير احمد باشا، قام بعدة إصلاحات، توفي يوم 18 أكتوبر 1882. ينظر: أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ج5، ص 13 - 14.

² - محمد الخضر حسين، المصدر السابق، ص - ص 28 - 29.

³ - خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900 - 1956، دار البصائر للنشر، الجزائر، 2008م، ج1، ص701.

⁴ - محمد الخضر حسين، المصدر السابق، ص32.

الحصول على شهادة ابتدائية تسمى "الأهلية" وتعليم الدرجة الثانية يمكن مزاوله من شهادة تسمى "التحصيل"¹ ، والتعليم العالي ينتهي بالحصول على شهادة تسمى "العالمية" وكل هذه الشهادات تمنح لأصحابها بالامتحان العمومي الكتابي والشفاهي².

والتلاميذ المحرزون على شهادة العالمية لهم الحق في طرق أبواب الوظائف العامة، فالذين زاولوا العلوم الشرعية لهم أن يتقدموا لخطط العدالة والإمامة والقضاء والفتوى... الخ، والناخبون في العلوم الوضعية لهم حق الانخراط في سلك الوظائف بالإدارات وبالمجالس العدلية³.

ج- مناهج التعليم بجامع الزيتونة:

ومن أهم ما تميز به جامع الزيتونة مناهج وطرق التدريس فيه التي عرفت أوج عطائها في العهد الحفصي، ثم عرفت مرحلة تأزم إلى حدود النصف الأول من القرن 19م، ثم شهدت وفي إطار المد الإصلاحية الذي عرفته البلاد خلال القرن 19م، حركية إصلاحية استمرت مع المشروع الإصلاحية لخير الدين باشا⁴، أو كما عرف بالقانون الخيري أو المعلقة الذي أكد على ضرورة إدخال مواد جديدة في التدريس، إلا أن تلاشي الفكر الإصلاحية خلال الربع الأخير من القرن 19م، جعل الجامعة الزيتونية تدخل مرحلة أزمة شاملة⁵.

¹ - شهادة التحصيل هي شهادة زيتونية بدأ العمل بها سنة 1874م وكان يطلق عليها اسم "التطويح"، يتحصل عليها الطالب بعد قضاء مدة 07سنوات المعدل في الدراسة يختمها باجتياز امتحان. ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب - التعليم العربي الإسلامي - ، ط1، دار سحنون، تونس، 2006م، ص87.

² - محمد الخضر حسين، المصدر السابق، ص33.

³ - محمد بن الخوجة، صفحات من تاريخ تونس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، ص292.

⁴ - خير الدين باشا: وزير ومؤرخ من رجال الإصلاح الاسلامي، شركسي الأصل جاء صغيرا الى تونس واتصل بصل بصاحبه أحمد باي وتعلم بعض اللغات، وتقلد مناصب عالية، كما له كتابه الشهير أقوام المسالك في معرفة أحوال الممالك. ينظر: خير الدين الزركلي، الاعلام، ط1، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، 2002م، ج2، ص375.

⁵ - خير الدين شترة، المرجع السابق، ص703.

ولم يهتم المسؤولون بشؤون التعليم إلا في سنة 1842م، حين أقدم الأمير أحمد باي الأول للمرة الأولى على تنظيم الدروس بجامع الزيتونة، وبعد ذلك التاريخ ببضعة عقود وعلى وجه التحديد في سنة 1876م، أي بعد عام من تأسيس المدرسة الصادقية بعناية الوزير المصلح خير الدين، أصدر نفس الوزير الأمر المؤرخ في 27 جانفي 1876م، الذي أعطى دفعا جديدا للتعليم الديني والقانوني والأدبي الملقن بالجامعة الزيتونية، ولكن ذلك الأمر قد بقى حبرا على ورق بالنسبة إلى تدريس العلوم العصرية التي أراد خير الدين إقحامها في برامج التعليم الزيتوني، وذلك بسبب معارضة بعض كبار الشيوخ الذين كانوا يرون فيها ضربا من ضروب الرجس أو البدعة¹.

د- جامع الزيتونة بعد الحماية الفرنسية:

لقد تأثر جامع الزيتونة سلبا وإيجابا، بكل التطورات التي شهدتها البلاد التونسية بسبب التدخل الأجنبي، ممثلا في التحكم في شؤون الشعب التونسي الذي تجاذبته رياح التقليد والتجديد بسبب انقسام العلماء على أنفسهم في مواجهة الوضع المتردي والتخلف الحاصل في الحركة الثقافية والفكرية².

من هنا شكل جامع الزيتونة عنصرا أساسيا من قضية الإصلاح سواء في تونس أو في الشمال الإفريقي عموما، كما أن هذه الإصلاحات كانت محل اهتمام ومتابعة من طرف السلطات التونسية سواء سلطة الباي وحاشيته أو سلطة الحماية³.

هذه الحركة التجديدية التي عرفها جامع الزيتونة خاصة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، تعود أساسا إلى النهضة الإصلاحية التي عرفتها تونس في عهد

¹ - خير الدين شترة، المرجع السابق، ص 707.

² - محمد الطيب رزوق، البعد المغربي للحركة الوطنية التونسية من خلال جريدة الإرادة 1948 - 1955م، (شهادة ماجستير)، إشراف لزهري بديده، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر2، 2013 - 2014م، ص 126.

³ - نفسه، ص 126.

محمود قبادو وخير الدين باشا، فكانت هذه التغييرات بنيت على تلك الإصلاحات المتمثلة في الأفكار التي رآها محمود قبادو، إذ يرجع سبب الانحطاط هو تركهم لعلومهم ويتوجب عليهم الأخذ من العلوم الأوروبية في حين كانت رؤية خير الدين للإصلاح تنطلق من معرفة عوامل التقدم الأوروبي والتي يوجزها في النظم السياسية التي دفعت عجلة التطور لأنها بنيت على العدل والحرية بعد أن طورت مناهجها التعليمية ومن هذه الأفكار جاءت فكرة إنشاء المدرسة الصادقية سنة 1875م من طرف خير الدين باشا¹.

وفي نفس الوقت الذي أعدت فيه اللجنة المشرفة على وضع برنامج خاص بالمدرسة الصادقية، كان لهذه اللجنة إعداد برنامج إصلاحي للزيتونة تضمن قائمة مواد التعليم وضبط كيفية سير الامتحانات، لكن شيوخ الزيتونة لم يقبلوا بإصلاح جذري للتعليم في المعهد فقد عارض المحافظون هذا التوجه الجديد وامتد هذا التأثير إلى كثير من الدول العربية بحيث كان تأثير كتاب "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" لخير الدين باشا واضحا، الذي ظل المرجع الأساسي لدعاة الإصلاح والتطور².

فتوالت الإصلاحات على جامع الزيتونة حتى بعد الحرب العالمية الثانية، فلا نكاد نجد إماما ولا خطيبا ولا محاضرا في مسجد من مساجد القطر التونسي إلا وهو ثمرة من ثمار جامع الزيتونة، ففي سنة 1945م صدر فيها الأمر الملكي بتعيين الشيخ محمد الطاهر بن عاشور³ شيخا للجامع الأعظم "جامع الزيتونة" للمرة الثانية، لرغبة منه بأن يقوم بإصلاح حال التعليم بجامع الزيتونة وترقيته، فقد كان أول زعيم دعا إلى التعليم الإجباري وتنظيم

¹ - محمد الطيب رزوق، المرجع السابق، ص 126.

² - محمد الطاهر بن عاشور، المصدر السابق، ص 90.

³ - محمد الطاهر بن عاشور: هو والد الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، ولد بتونس سنة 1879م، كان من مشاهير مدرسي الجامع الأعظم ثم رئيسا لجامعة الزيتونة، كتب عدة المؤلفات منها تفسيره للقران الكريم المعروف باسم التحرير والتوير، أليس الصبح بقريب وغيرها، توفي سنة 1973م. ينظر: محمد الفاضل بن عاشور، المصدر السابق، ص 335.

حملة رسمية لمحو الأمية ولعل هذه الثورة الفكرية نبتت معه عند ملاقاته للشيخ محمد عبده¹ وتشبعه بأفكاره الإصلاحية وحمل بعد ذلك محمد الطاهر بن عاشور لواء الإصلاح².

فابتدأ بإصلاح التعليم الذي شمل فيه عملية الإصلاح عدة جوانب، منها ذات صبغة إدارية وأخرى ذات صبغة علمية وازدهر التعليم بجامع الزيتونة في عهد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور حتى بلغ عدد فروع الزيتونة إلى 27 معهدا علميا، ولم يكن جامع الزيتونة مقتصرًا على الذكور فقط فقد شمل الإناث أيضا وخصص فرع للبنات، كما ارتفع عدد الشيوخ المدرسين، ونظمت الامتحانات وضبطت ضبطا محكما وصارت هناك لجان امتحانات تشرف على الشهادات العلمية³.

كما شملت عناية الشيخ ابن عاشور إصلاحات ذات صبغة علمية تمثلت في إصلاح الكتب الدراسية وأساليب التدريس ومعاهد التعليم، حيث تم استبدال الكتب بكتب جديدة، فيقول الشيخ ابن عاشور في هذا السياق: ((إن هدف التعليم بهذا المعهد هو الحفاظ على الأمة بعلوم دينها (...)) والحفاظ على لغتها التي هي ضمان جامعها ومظهر مفاخرها وعزتها لذلك دعت الحاجة إلى إصلاح التعليم الزيتوني في المناهج والطرق والأساليب))⁴.

¹ - محمد عبده: هو عالم دين وفقيه ومجدد إسلامي مصري ولد سنة 1849م، يعد أحد رموز التجديد في الفقه الإسلامي ومن دعاة النهضة والإصلاح في العالم العربي والإسلامي، ساهم بعد التقائه بأستاذه جمال الدين الأفغاني في إنشاء حركة فكرية تجديدية إسلامية، توفي سنة 1905م. ينظر: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج6، ص252.

² - محمد الطيب رزوق، المرجع السابق، ص127.

³ - نفسه، ص ص127 - 128.

⁴ - نفسه

كما حث الشيخ على التفرغ وبذل الجهد في التأليف العلمي لهذا الجانب فقال:

((وإصلاح التأليف هو الخطوة الأولى بل هو نصف المسافة من إصلاح العلوم، فما العلوم إلا معاني التأليف وإنما لا ترجو التقدم ما دامت محبوسة في تأليفها القديمة التي وقفت بها عند القديم منذ ستمائة سنة))¹.

2- مؤسسة الزوايا والطرق الصوفية:

تعرف زوايا مدينة تونس بأنها خلايا لممارسات طقوس الطرق الصوفية وأماكن تعبد واعتكاف وهي كذلك أضرحة ومقامات لمؤسسي الطرق من أهل الورع والصلاح².

تعتبر الزوايا إحدى المراكز الدينية في تونس مما تحمله من تأثير بالغ في المجتمع وتزايد هذا التأثير مع مرور الزمن فاكتمت أهمية قصوى داخل البوادي والقرى، إذ كانت تمثل المراكز الوحيدة لتعليم الصبيان الخط وكتاب الله ومبادئ الدين، ولشخصية صاحب الزاوية إشعاع ديني يصل أحيانا إلى حد التقديس، وتولدت الزاوية عن الرباط وهي بناية تعلوها قبة بها محراب في الغالب وضريح لأحد المرابطين، وبها بيوت للوافدين عليها من زوار وطلبة وحجيج في طريقهم إلى الديار المقدسة أو عائدين منها كما تحتوي الزاوية على مطعم وأصبحت الزاوية فيما بعد تقام حول ضريح أحد الأولياء المشهورين وتحبس عليها الأملاك وتنظم بها الدروس³.

أ- دور الزوايا الدينية في تونس:

كان من الناس من يحبس على الزاوية شيئا من أملاكه ويفضل هذه المداخل القارة للزاوية تمكنت من تأدية رسالة تربية ودينية واجتماعية وثقافية ذات قيمة في تلك العهود

¹ - محمد الطيب رزوق، المرجع السابق، ص130.

² - بوابة مدينة تونس، الزوايا، www. commune - tunis. gov. tn، 2019/04/22م، 12: 45سا.

³ - خير الدين شترة، المرجع السابق، ص675.

وشاركت في نشر الثقافة خاصة بين أبناء أهل الريف وذوي الحاجة، فقد كان يؤمه الطلبة الفقراء من مختلف الجهات البعيدة ويجدون بها المأوى والطعام بالإضافة إلى الدروس المنتظمة، الشيء الذي يجعلنا نتأكد أن الزاوية كان لها نظام داخلي تام الشروط يدخلها الطفل ويتعلم بها بداية من حفظ القرآن حتى يصل إلى مرتبة التدريس أحيانا وكانت الدروس التي تلقى بالزاوية تشمل تحفيظ القرآن ودراسة قواعد اللغة والفقه والحديث النبوي الشريف، والحساب وهذا القسم يخص التلامذة الصغار وهو يمثل الحلقة الوسطى بين التعليميين الابتدائي والثانوي¹.

وهناك قسم آخر اضطلعت به الزاوية وطغى عليها في أواخر أيامها وهو تعليم الطريقة الصوفية للمريدين وهي أنكار وأناشيد وقصائد وموشحات ألفاظها صوفية، وأدت هذه التربية إلى التهذيب الأخلاق وتنظيم السلوك الاجتماعي وكان لشيخ الزاوية تأثير في المريدين وغيرهم من الناس².

وكان بأغلب الزوايا بتونس مكاتب حافلة بنوادير المخطوطات يستعين بها الشيوخ والطلبة وكل من له ولع بالعلم وأشهر الزوايا هي زاوية سيدي أبي لبابة الصحابي بنيت بقابس سنة 1874م وزاوية العيساوية التي تأسست سنة 1876م بمدينة قابس³.

فتخصصت الزاوية مع مرور الزمن لتعليم الطرق الصوفية فأصبح الناس يترددون عليها ليرددوا الأذكار والمدائح بها، ومن بين هذه الزوايا زاوية الشيخ إبراهيم الرياحي الذي انتمى لأول مرة إلى الطريقة الشاذلية وأخذ مبادئها من الشيخ البشير الزواوي، ثم التقى بتونس سنة 1796م، الشيخ علي حرزاف الفاسي المتأثر بالشيخ أحمد التجاني فأخذ عنه الطريقة التيجانية وعمل على نشرها في البلاد التونسية، وأسس هذه الزاوية بالقرب من

¹ - خير الدين شترة، المرجع السابق، ص 675.

² - نفسه.

³ - الموسوعة التونسية المفتوحة، أشهر الزوايا، www. mawsouaa. tn، 2019/03/15، ص 22: 12.

حوانيت عاشور، وأصبح بذلك الممثل الرسمي لتلك الطريقة في بلاده، توفي يوم 7 أوت 1850م ودفن بزوايته، وفي عهد المشير محمد الصادق باي قام وزيره خير الدين باشا¹ بترميم زاويته وتجديد قبته سنة 1878م، كما كان في جميع أقطار تونس العديد من الزوايا التي تستقطب الكثير من سكان تونس وحتى المهاجرين إليها².

وبتخلي الزاوية عن التعليم أفسحت المجال للكتاتيب والمدارس التي تمخضت للقيام به وانتشرت في أنحاء البلاد، يعتبر الكتاب أو المكاتب كما تدعى أحيانا النواة الأولى لمستوى التعليم العربي في البلاد التونسية الإسلامية حتى نهاية القرن 19م، إذ يتلقى الأطفال في الكتاب الكتابة والقراءة والمعارف القرآنية لذلك يهتم المحبسون كثيرا بشؤونها فيخصونها بأحباسهم أو يدخلونها ضمن عملية التعلم في أي مدرسة أو جامع يحبسون عليه لذلك انتشرت الكتاتيب في كامل البلاد التونسية³.

كما اشتهرت من هذه المدارس المدرسة المشاعية والمعرضية ومدرسة الهواء بالإضافة إلى مدرسة القائد نبيل شرقي باب القصبه ومجمل هذه المدارس خمسة عشرة مدرسة، التي كان إنشائها من أبرز عوامل ازدهار الحياة العلمية بتونس لإقبال الطلبة عليها حيث كانت مفتوحة لهم ليلا ونهارا⁴.

² - فتيحة عبد النور، الروابط الثقافية بين الجزائر وتونس ما بين 1860 - 1954، (مذكرة شهادة ماجستير)، إشراف صبيحة بخوش، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، 2013 - 2014م، ص 77.

³ - خير الدين شترة، المرجع السابق، ص 676 - 677.

⁴ - الطيب بن عيسى، "المعاهد الإسلامية الجامعة"، المجلة الزيتونية، مج 6، تونس، 1942م، ج 3، ص 420.

ب- مؤسسة الطرق الصوفية:

لقد تعددت الطرق¹ الصوفية في البلاد التونسية ومن هذه الطرق البارزة هي الطريقة القادرية التي سميت نسبة إلى مؤسسها الأول عبد القادر الجيلاني²، وكانت أول زاوية لها بمنزل بوزلفة بمعونة حمودة باشا الذي اعتبر من أوائل أتباعها حتى انتشرت في كافة الإيالة التونسية³.

1- وظائف الطرق والزوايا:

تتشارك الطرق الدينية والزوايا مع العلماء في تأطير المجتمع وذلك من حيث قيامها بعدة وظائف سياسية وتربوية واجتماعية وروحية⁴:

1- الوظيفة السياسية:

نشأت الطرق الدينية وتطورت في ظل أزمة النظم السياسية وتعرض المجتمعات المغربية للهجوم الأجنبي خاصة الفرنسي، وتحملت خلال هذه المرحلة مهمة تأطير السكان

¹ - معنى التصوف: لغة مشتق من الصوف، لباس الزاهدين، وأما اصطلاحا: هو العكوف على العبادات والانقطاع إلى الله والإعراض عن الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الناس من مال وجاه والانفراد عن الخلق والخلوة للعبادة. ينظر: قارة فطيمة، موقف الطرق الصوفية التونسية من الحماية الفرنسية 1881 - 1939، (رسالة شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر)، إشراف يحيوي مسعودة، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر2، 2011 - 2012م، ص6.

² - عبد القادر الجيلاني: ولد سنة 1097م بجيلان بالعراق قدم بغداد حيث تفقه وسمع الحديث من عدة علماء، تصدر للتدريس والفتوى، ثم صار يقصد بالزيارات حتى اخذ عنه الطريقة. ينظر: التليلي العجيلي، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881 - 1939)، كلية الآداب بمنوبة، جامعة تونس، 1992م، ص38.

³ - نفسه، ص40.

⁴ - كمال جرفال، "الطرق والزوايا بسوسة وموقفها من انتصاب الحماية الفرنسية بتونس من خلال تقارير ضابط جيش البر الفرنسي"، مجلة روافد، تونس، العدد2، 1896م، ص10.

ورفع راية الجهاد، لذلك أصبحت مثل الأحزاب السياسية تؤطر السكان أثناء الأزمات الداخلية والمواجهة الخارجية¹.

ب- الوظيفة التربوية:

تمثل الزوايا أماكن للتعليم إذ توجد بها مدارس وكتاتيب كما يمارس شيوخها مهمة التدريس².

ج- الوظيفة الاجتماعية والروحية:

تقوم الطرق بتنظيم حلقات الذكر، الذي كان يعتبر شكلا من أشكال التعبد والزهد والتعبير عن صدق النية، وخصصت كل زاوية لهذا الغرض يوما لاجتماع الأتباع، وهي بالتالي تشكل نوادٍ يلتقي فيها أفراد المجموعة الحضرية بمختلف أصنافهم الاجتماعية مما يساهم في تقوية أواصر اللحمة والتضامن الاجتماعي³.

أما الطريقة التجانية التي تنسب إلى مؤسسها سيدي أحمد التجاني⁴، الذي تنقل في الصحراء لنشر طريقته ثم التجأ إلى فاس حيث اجتمع به الشيخ إبراهيم الرياحي⁵، أثناء سفرته إلى المغرب الأقصى، وكان أول من تلقى الطريقة التجانية بحاضرة تونس ونشرها في

1 - كمال جرفال، المرجع السابق، 10

2 - نفسه.

3 - نفسه.

4 - أحمد التجاني: ولد سنة 1737م، رحل سنة 1758م إلى فاس ثم إلى تلمسان حيث درس الحديث والتفسير وغيرهما، توفي سنة 1814م. ينظر: التليي العجيلي، المرجع السابق، ص43.

5 - إبراهيم الرياحي: ولد بتستور سنة 1756م التحق بالحاضرة للتعليم تولى عدة مناصب كما أرسل في عدة مهام دبلوماسية توفي سنة 1850م. ينظر: نفسه.

معظم أرجاء البلاد التونسية، فظهرت عن هذه الطرق الصوفية الأصلية فروع أخرى تابعة للطريقة القادرية الأم وطرق من غير القادرية¹.

3- مؤسسة الأوقاف والأحباس:

يعتبر الوقف مؤسسة دينية خيرية، فأخذ على مر الزمن يتخذ طابعا دينيا تربويا، فعد من أبرز مظاهر التمدن في الحضارة العربية الإسلامية.

فالأحباس جمع حبس أو الأوقاف جمع وقف وعليه نقول أن الحبس هو الوقف²، فقد سار هذا الأخير في تونس على المنوال الذي ضبطه جمهور الفقهاء في باب الحبس والأوقاف، لكن في بداية من منتصف القرن 19م، بدأ تدخل البايات في الأوقاف ففي عهد أحمد باي ونظرا إلى توسعه في الإنفاق العسكري اضطر إلى تعيين بعض أفراد العسكر على الأحباس، وتفاقم الأمر مع الصادق باي فقد خرجت مسؤولية الوكالة على الأحباس من رجال الشرع إلى قيادات العسكر وأصبحت الأوقاف مصدرا للرزق والكسب لا للأجر والثواب³.

¹ - ومن بين هذه الطرق الفرعية نذكر منها الطريقة الشاذلية والطريقة الشاذلية والطريقة المدنية والطرق غير فرعية من الطريقة القادرية نجد الطريقة الخلوئية والبكرية و الحفناوية و الرحمانية. ينظر: نفسه، صص 45 - 51.

² - الأزهر الصخراوي، مخطوط السياسة الاستعمارية الفرنسية بتونس من برنار رو إلى شارل سومانيه(1881 - 1956)، ط1، تقديم الهادي تيمومي، دار المسير، 2018م، ص91.

³ - جمعة شيخة، "الوقف بين التنظير والتطبيق والإلغاء: التجربة التونسية نموذجا"، جامعة تونس، ص9، <https://iefpedia.com/>، 2019/03/28، 23: 12سا.

ومرت الأوقاف بمرحلتين:

أ- المرحلة الأولى:

وهي المرحلة التي أصبحت فيها الأحباس تحت إشراف المجلس البلدي العاصمة (من سنة 1858 إلى سنة 1861)¹، وبذلك فقدت استقلاليتها وأصبحت تحت الإدارة المباشرة للدولة².

ودق ناقوس الخطر أول رئيس للمجلس البلدي وهو الجنرال حسين³ بتقديم استقالته من رئاسة هذا المجلس عندما عجز عن الوقوف في وجه من أرادوا من حاشية الباي المس من أملاك الأوقاف وصرفها في غير الوجه الشرعي الذي وضعت له⁴.

ب- المرحلة الثانية:

أصبحت فيه الأوقاف تحت إشراف جمعية الأوقاف، نظرا إلى ما أصاب الأحباس من تدهور، أسس المصلح خير الدين التونسي بعد توليه الوزارة الكبرى جمعية الأوقاف سنة 1847م، وكان مقر هذه الجمعية ثكنة عسكرية تركية بنهج جامع الزيتونة⁵.

وأول عمل سارعت الجمعية للقيام به هو تحديد الأملاك المحبسة وخاصة تلك التي بدأت تخرج من حرمة الأوقاف بطرق متعددة نتيجة لضعف الوازع الديني لدى المشرفين

¹ - المجلس البلدي: هو أول بلدية تأسست في تونس يوم 30 أوت 1858م، وكان أول رئيس لها الجنرال حسين. ينظر: الموسوعة التونسية المفتوحة، المجلس البلدي، www.communetunisie.gov.tn، 2019/04/16، 10: 15 سا.

² - الأزهر الصخراوي، المرجع السابق، ص 92.

³ - الجنرال حسين: ولد سنة 1828م عسكري وإصلاحي ورجل دولة تونسي من أصل شركسي، من تلاميذ مدرسة باردو الحربية ورفيق خير الدين باشا حيث شغل منصب رئيس بلدية تونس، ثم مستشارا في الوزارة الكبرى سنة 1873م، توفي في 17 جويلية 1887م. ينظر: الصادق الزملي، أعلام تونسيون، تقديم وتعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص ص 79 - 80.

⁴ - الأزهر الصخراوي، المرجع السابق، ص 92.

⁵ - جمعة شيخة، المرجع السابق، ص 10.

عليها، وقد نجحت نسبيا في الحد من طرق التحايل عليها واسترجاع ما تم الاستيلاء عليه من أملاكها، لكن بعد سقوط وزارة خير الدين سنة 1878م، بدأ الفساد يعود إلى مؤسسة الوقف بإسناد الوظائف بالجمعية إلى غير أبناء المدينة الموجودة بها الوقف، وتعيين آخرين لا يعرفون طبائع أهل الجهات كما يجهلون كل ما يتعلق بالوقف شرعا وتطبيقا، وأصبح تسيير الأوقاف حسب الأهواء والمنافع وبدون مراقبة، ولم يعد للمشرف في ذلك إلا انتظار آخر الشهر لتسلم مرتبه، وكانت الإيالة تمر بفترة من أسوأ فتراتهما سياسيا واقتصاديا مع الوزير مصطفى بن إسماعيل¹ مما هيأها لأن تكون لقمة سائغة للاستعمار الفرنسي².

ومن أهداف المحبس تتمثل فيما يلي:

- التقرب من الله والتكفير من الذنوب وذلك بإيجاد صدقة جارية تظل تسبح له في حياته ومماته.

- نزعة عدد كبير من الملاكين للالتجاء إلى وقف أراضيهم³ لفائدة المشاريع الخيرية بهدف تجنيبها من نهب أعوان الباي وجشعهم، وما قد يلحق بها من مصادرة، لأن الأراضي المحبسة لا تباع ولا تشتري ولا ترهن وهي غير خاضعة لأي إحالة وبذلك لا يمكن للإدارة الفرنسية التفكير في السيطرة عليها لأن هذه ذات صبغة دينية وبعد قدسي، لكن هذا النوع

¹ - مصطفى بن إسماعيل: ولد سنة 1850م أسندت إليه الوزارة الكبرى في أواخر عهد محمد الصادق باي، وكان من المشجعين للحماية الفرنسية على تونس، وقد عرف بالفساد والتحايل والاستيلاء على ممتلكات الناس والاستحواذ على الأوقاف، توفي سنة 1887. ينظر: رشاد الإمام، سيرة مصطفى بن إسماعيل، وزارة الشؤون والثقافة، تونس، 1981م، ص9.

² - جمعة شيخة، المرجع السابق، ص10.

³ - تعتبر أراضي الأحماس الأراضي غير تامة الملكية باعتبارها مشغولة منذ زمن بعيد بالسكان الذين استقروا بها وهم الأقدم تعميرا واستقرارا في الأراضي، لكن لا تتوفر لدى هؤلاء حجج ملكية أو ما يشبهها. ينظر: الأزهر الصخراوي، المرجع السابق، ص90.

من الملكيات سيجعل من فرنسا تبحث عن السبل والذرائع لافتكاكها تحت عديد المسميات، وهذا سوف نتطرق إليه في الفصل اللاحق¹.

وهكذا استولت إدارة الاستعمار على الأوقاف المسلمين واغتصبت أخصب الأراضي الموقوفة لجهات البر والتعليم، كما هدمت النظم القائمة على أساس الشريعة الإسلامية غير مبالية بما تحمله من مصالح عامة وما تصرف عليه من بيوت الله ودور العلم، فعادت إدارة الأوقاف إلى الفقر وأصبحت عاجزة عن القيام بشؤون المؤسسات العلمية والخيرية فهدمت المدارس والمساجد وأصبح الكثير منها في حالة يرثى لها².

ثالثاً: التعريف بالمؤسسات العلمية في تونس

لقد كانت المؤسسات العلمية في تونس مزدهرة خاصة في فترة الحماية الفرنسية مواكبة للإصلاحات العصرية الجديدة، بدليل أنها استطاعت أن تنشأ بها مدارس تعليمية وجمعيات ونوادٍ علمية وفكرية، وسنتطرق إلى الدور العلمية التي كانت بتونس آنذاك.

1- المدرسة الصادقية:

بعد تظن المصلح خير الدين باشا إلى دور التعليم في النهوض بالبلدان وإثارة العقول معتبراً أن تقدم الدول الأوروبية ناتج عن تمهيد طرق العلوم والفنون وتسهيل أسباب تحصيلها، قام سنة 1875م بإنشاء المعهد الصادقي³ نسبة إلى محمد الصادق باي وهو المعهد الذي أدخلت في برامجه لأول مرة بعد المدرسة الحربية التي أغلقت اللغات الأجنبية والعلوم العصرية كما فتحت أبوابها لجميع سكان البلاد دون تمييز، كما أقر خير الدين مبدأ التعليم، كما قام أيضاً بتنظيم التعليم الزيتوني⁴.

¹ - الأزهر الصخراوي، المرجع السابق، ص 91.

² - الحبيب ثامر، المصدر السابق، ص 47.

³ - ينظر الملحق رقم 02، ص 137.

⁴ - الهادي جلاب، المجتمع التونسي بين التأصيل والتحديث 1881 - 1956، تونس، 1998م، ص 55.

أما عن مكان المدرسة فأختير "قشلة الزنايدية" وهي تكنة قديمة بناها حمودة باشا في أوائل القرن 19م، وباشرت المدرسة عملها يوم 27 فيفري 1875م حيث عين العربي زروق¹ رئيسا لها يساعده كل من الأمير "آلي اسكندر" و"عمر بن بركات"، وبلغ عدد التلاميذ المرسمين عند افتتاحها 167 تلميذا، أما برنامج التعليم بها فأسند إلى علماء جامع الزيتونة تدريس اللغة العربية، الحديث وعلوم الدين والنحو والصرف والتاريخ والأدب وغيرها، وتعليم اللغات الأوروبية من بينها اللغة الفرنسية والإيطالية إلى جانب اللغة التركية بإشراف أساتذة فرنسيين يترأسهم العالم "توسن روكا" كما جهز المدرسة بقاعة للتمريض ومكتبة ومسجد يؤمه الإمام البارودي².

كما جعل التعليم بها مجانا للجميع، وتم تقسيم التعليم فيها إلى درجتين تعليم أولي وتعليم ثانوي مع تنسيقه مع التعليم الزيتوني بحيث يصح للطالب أن ينتقل في رتبة معينة من المدرسة الثانوية لإكمال دراسة العلوم الدينية بالجامع، فاستطاعت المدرسة أن تجلب اهتمام التونسيين وتمنحهم ثقافة عربية إسلامية وتعلما عصريا، كما أرسلت بعثات طلابية إلى فرنسا للدراسة بديار المعلمين الابتدائية سنة 1882م وذلك بهدف تكوين نخبة مثقفة ثقافة علمية وظلت الصادقية متدرجة في مراقي التقدم حتى نظم فيها قصائد معددة فضائلها ومحاسنها منها قصيدة لأديب التونسي الشيخ الباجي المسعودي ومطلعها:

الصادقية حسنها بهر الورى فأجل لحاظك معجبا ومفكرا

¹ - محمد العربي زروق: ولد بتونس سنة 1823م درس بباردو، كما أسندت إليه رئاسة المجلس البلدي لمدينة تونس، وعين أول مدير للمدرسة الصادقية، سمح له تكوينه بدخول الجيش التونسي برتبة المارشال ثم ارتقى إلى رتبة أمير لواء في عهد محمد الصادق باي، وقد أقيل من وظائفه بعد فرض الحماية على تونس 1881م. ينظر: احمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ج7، صص 132 - 134.

² - محمد بن الخوجة، المصدر السابق، ص312.

حيث مكن هذا التعليم العصري من إدخال تحول جذري في المجتمع التونسي فبعد أن كان الطالب التونسي يتلقى تعليماً دينياً في مؤسسات قديمة أصبح يأخذ أيضاً علوماً عصرية ولغات أجنبية في مؤسسات حديثة¹.

2- المدرسة الخلدونية:

لقد بادرت جمعية الحاضرة بتأسيس الجمعية الخلدونية² يوم 22 ديسمبر 1896م التي استمدت تسميتها من اسم العلامة المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون وتهدف إلى إدخال الثقافة العصرية إلى حلقات جامع الزيتونة حيث أسندت رئاستها إلى محمد الأصرم³ لإكمال النقص الواضح ببرامج جامع الزيتونة وذلك بتنظيم محاضرات في التاريخ والجغرافيا واللغة الفرنسية والفيزياء والكيمياء⁴.

ويتم فيها تعليم طلبة الزيتونة طرقاً جديدة ومواد جديدة إسهاماً في تكوين الفكر النقدي لديهم وتمكينهم من التفتح على العالم الخارجي⁵.

كما أن جماعة الحاضرة أرادت من خلال هذا المشروع فتح الجامع الأعظم على الثقافة العصرية قصد إحياء النفوس الخاملة والتي اتخذت الانطواء والعزلة في الحياة، فتم الاتفاق بين جماعة الحاضرة والإقامة العامة على أهداف هذه الجمعية وهي إظهار الموافقة بين الشريعة الإسلامية والتمدن الحالي باستعمال ما لا يناسبها من الطرق الجديدة في

¹ - زاهية قدورة، تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، 1985م، ص472.

² - ينظر الملحق رقم 03، ص138.

³ - محمد الأصرم: ولد في 23 نوفمبر سنة 1866م بالقيروان وتلقى تعليمه في الصادقية والزيتونة وسافر إلى باريس ودرس بها لمدة سنتين وتحصل على شهادة من مدرسة الترشح وسافر إلى باريس ودرس بها لمدة سنتين وتحصل على شهادة الترشح ثم عاد إلى تونس وكانت له مشاركة فعالة في النشاط الاجتماعي والثقافي وشارك في حركة الشباب التونسي. ينظر: الصادق الزملي، المصدر السابق، ص 177 - 178.

⁴ - عامر مريقي، المرجع السابق، ص66.

⁵ - حبيب حسن اللولب، أبحاث ودراسات في تاريخ المغرب العربي المعاصر، د. ط، وزارة الثقافة، الجزائر، ص 125 - 126.

التعليم. وفي السياق كتبت اللجنة المكلفة بالخلدونية متحدثة عن دواعي التأسيس والأهداف والبرامج:

1- تأسيس جمعية مؤلفة من مسلمين عارفين بتلك المقاصد وغرضها بث المقاصد وتخريج معلمين قادرين على نشر أصول المعارف الأوروبية باللغة العربية.

2- تشغل بالمقارنة والتوفيق بين شرائح الأهالي والأوروبيين.

3- توسيع نطاق العلوم العصرية بجامع الزيتونة والتفتح على الحضارة الغربية والتوفيق بينهما وبين الحضارة العربية¹.

4- تشجيع إنشاء مكاتب.

5- إصدار نشرية بالعربية والفرنسية يكون هدفها الرئيسي تعريف الفرنسيين بالحضارة العربية والمسلمين بالحضارة الغربية.

فتحت الجمعية الخلدونية أبوابها يوم السبت 15 ماي 1897م باحتفال رسمي حضره المقيم العام روني ميبى "Rooney Meebe" كما أنها أصبحت من أكبر المؤسسات التعليمية وصارت قبلة لكثير من طلبة المغرب والجزائر².

كان مقر الجمعية الخلدونية بنهج سوق العطارين في المدينة العتيقة، كما ترأس المصلح التونسي البشير صفر الخلدونية، التي ساهم في تأسيسها سنة 1897م، فعمل على تقديم محاضرات في التاريخ ضمنها آراء إصلاحية، كما ساهم أيضا الشيخ سالم بوحاجب في نشاطها بإلقاء محاضرات سنة 1903م³.

¹ - الحبيب حسن اللولب، المرجع السابق، ص 125 - 126.

² - نفسه. ص 128.

³ - خير الدين شترة، المرجع السابق، ص 665.

كما برز تطور الخلدونية أكثر بعد الحرب العالمية الثانية حين تقلد رئاستها الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، وأمام تأسيس الاحتلال الفرنسي معهد الدراسات عام 1945م، والذي كان يتبع جامعة باريس ويدرس موادها باللغة الفرنسية، قررت الهيئة المشرفة تحت إدارة بن عاشور تحويل الخلدونية ما أسمته "جامعة شعبية"¹.

احتضنت الخلدونية المؤتمر التأسيسي للاتحاد العام التونسي للشغل عام 1946م ونال مديرها الرئاسة الشرفية للمنظمة، إضافة إلى احتضانها مؤتمر الثقافة الإسلامية عام 1949م².

وتم بالفعل إصدار نشرية المدرسة ومهمتها تتمثل في نشر الدروس المثالية المقدمة بالخلدونية وفي الآن نفسه تصدر ملخصات للمؤتمرات والندوات العلمية التي تشرف عليها الجمعية³.

ومن بين مجموع المحاضرات التي احتضنتها الجمعية الخلدونية هي:

الجدول يوضح أهم المحاضرات التي أقيمت ما بين سنتي 1946 - 1948م في الجمعية الخلدونية⁴:

التاريخ	عنوان المحاضرة	المحاضر
1946/11/28	مشكلة العربية في الهند	الفاضل بن عاشور
1946/12/11	الإخوان المسلمين في الصين	//
1946/12/18	حياة الشيخ أرسلان	//

¹ - حبيب الحاج سالم: "تونس.. الخلدونية مدرسة التحديث والمقاومة"، 27 ديسمبر 2016، [www. ultrasawt. com](http://www.ultrasawt.com)، 2019/04/17، 11: 49.

² - خير الدين شترة، المرجع السابق، ص 666.

³ - نفسه.

⁴ - محمد بوطيبي، "الجمعية الخلدونية التونسية بين الرمزية التاريخية والمشروع العلمي التونسي"، مجلة أفاق فكرية، العدد 09، المجلد 04، 2018م، ص 33.

//	مسلمو الهند	1946/12/21
محمد الصادق بسيس	حياة الشيخ أرسلان	1947/01/04
الهادي نويرة	نظرة حول المستعمرات الفرنسية	1947/01/10
أحمد المختار الوزير	حياة أرسلان	1947/01/15
محمد الفاضل بن عاشور	تطور المسألة الاستعمارية في الهند	1947/01/15
الهادي نويرة	السياسة الاستعمارية خلال فترة تأسيس الدستور الفرنسي	1947/01/19
صالح المهدي	دور الصحف العربية في لعالم	1948/12/11
محمد المهدي	حياة عبد العزيز جاويش	1948/12/25

لم تتعزل الجمعية على نفسها بل كانت مفتحة على العديد من القضايا والانشغالات التي حولها، وأولت اهتماماتها بالقضايا السياسية والاجتماعية التونسية من خلال محاضراتها¹.

لكن منذ مطلع الخمسينات أخذت الأحداث السياسية وملابساتها تغطي على الحياة العامة وعلى نشاط الجمعيات الثقافية بوجه خاص لما في ذلك الجمعية الخلدونية التي تقلص نشاطها سنة 1956م شيئاً فشيئاً حتى أصبحت مجرد مدرسة حرة²، حتى أصبح نشاط الخلدونية كان يندرج ضمن الحركة الإصلاحية وقد لعبت دوراً هاماً في تثقيف طلبة الزيتونة³.

3- جمعية قداماء الصادقية:

تأسست جمعية قداماء تلامذة المدرسة الصادقية في ديسمبر سنة 1905م، التي تألقت الجمعية من طلبة تلامذة الزيتونة والصادقية، التي تولى رئاستها الأولى خير الله بن

¹ - محمد بوطيبي، المرجع السابق، ص33.

² - خير الدين شترة: المرجع السابق، ص667.

³ - الحبيب حسن اللولب، المرجع السابق، ص126.

مصطفى، وكان من أعضائها البارزين علي باشا حامبة، وعبد الجليل الزاوش وحسن قلاتي¹، وكان مقر الجمعية نهج باب بنات عدد39 تونس²، فبدأت تسير في خطاها المنغمس في الفرنسية إلى جانب الابتعاد كل البعد عن الثقافة العربية، وجعلوا من هذا النادي أداة لنشر الثقافة الفرنسية والحضارة الغربية، مما أجبر الشعب التونسي أن يقف منهم موقفًا سلبيًا ويحارب اتجاهاتهم الغربية³.

مما أجبر خير الله بن مصطفى إلى فتح الحوار وعدم التطرف مع الحركة الإصلاحية من جديد ودعوة مثقفي الزيتونة والخلدونية إلى المشاركة في إلقاء المحاضرات في النادي، وبالفعل لبي طلبة الزيتونة الدعوة وألقى مجموعة منهم محاضرات قيمة، وقد أحدثت مشاركتهم صدى بعيدا في نفوس الناس وتجذر الروح الوطنية لدى الشباب⁴.

- أهداف الجمعية:

تسعى إلى تخليد الأفكار ونشر المبادئ التجديدية التي كان المعهد الصادقي مصدرا لها وفي الآن نفسه كانت تهدف إلى تغيير عقلية الشعب التونسي بدفعه نحو التقدم والأخذ بالأفكار العصرية ويقول في هذا السياق علي باشا حامبة⁵: "إنه لبلوغ ذلك علينا أولا أن نجتهد للحفاظ على هذا الفكر التجديدي الذي كان في المعهد الصادقي"، فكانت تهدف إلى

¹ - الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية جديدة 1830 - 1956، ط2، دار المعارف، سوسة - تونس، ص37.

² - عزيز عبد الكريم، نضال شعب أبي تونس 1881 - 1956، مركز النشر الجامعي، تونس، 2001م، ص121.

³ - الطاهر عبد الله، المرجع السابق، ص38.

⁴ - نفسه.

⁵ - باش حامبة: ولد علي باش حامبة سنة 1867م بتونس ، بدأ نشاطه الاجتماعي والسياسي سنة 1906م عندما انخرط في جمعية قداماء الصادقية، كما كان من بين مؤسسي حركة الشباب التونسي، توفي سنة1918م. ينظر: نور الدين الدقي حركة الشباب التونسي، المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، جامعة تونس الأولى، تونس، 1999م، ص ص233 - 235.

إحداث مكتبة وتنظم محاضرات موجهة إلى قدماء الصادقية وأخرى موجهة إلى عامة الشعب¹.

فقد استطاعت الجمعية أن تنظم خلال السنة من أبريل 1906م إلى أبريل 1907م حوالي 84 محاضرة منها 27 في مقرها و 57 في الأحياء الشعبية، والواضح أنها كانت تهدف إلى نشر الوعي بين الجماهير لتحقيق نهضة أدبية وفكرية وإعادة بعث الحياة في البلاد التونسية².

فيندرج عمل الجمعية ضمن الحركة الإصلاحية ويتجلى ذلك من خلال زيارة محمد عبده الأولى لتونس في ديسمبر 1884م حين صرح أن هناك تقارب كبير في الحركة الإصلاحية بتونس وأهداف العروة الوثقى³، كما أكد الشيء نفسه خلال زيارته لتونس في ديسمبر⁴.

واكبت الصحافة التونسية نشاط الجمعية وذلك من خلال ما نشرته جريدة الحاضرة⁵ بعنوان "إن الله يأمر بالعدل والإحسان"، كما كانت تنشر ملخصا للمحاضرات التي تلقى فيها.

1 - عامر مريقي، المرجع السابق، ص 68.

2 - نفسه.

3 - العروة الوثقى: هي حركة سرية برزت سنة 1882م التي أسسها جمال الدين الأفغاني التي كان هدفها تحرير العالم الإسلامي وتوحيده، وقد انضم من المغرب العربي إلى هذه الحركة الشيخ محمد بيرم الخامس ومن الجزائر الأمير عبد القادر، وتأثر بها الشيخ محمد السنوسي عندما كان في المنفى بمصر وفي سنة 1883م بدأ ينشر في مبادئ حركة العروة الوثقى. ينظر: الطاهر عبد الله، المرجع السابق، ص 31.

4 - يوسف منصارية، دور النخبة التونسية في الحركة الوطنية التونسية بين الحربين العالميتين، دار هومة، الجزائر، 2013م، ص 233.

5 - جريدة الحاضرة: تأسست يوم 3 أوت سنة 1888م على يد مجموعة من الشباب التونسي، فهي جريدة عربية التي تولى إدارتها عي بوشوشة وهو من خريجي المدرسة الصادقية أصبح مقر جريدة الحاضرة هو النادي الذي يجتمع فيه أركان الحركة الإصلاحية وأركان العروة الوثقى. ينظر: الطاهر عبد الله، المرجع السابق، ص 32 - 33.

واهتمت بالنشاط الثقافي والتعليمي من خلال تأسيسها لمدرسة قرآنية عصرية حيث شهدت إقبالا كبيرا من طرف التلاميذ واعتمدت منهاجا دراسيا يتمثل في تحفيظ القرآن الكريم واللغة العربية والجغرافيا والحساب واللغة الفرنسية ووصل عدد التلاميذ فيها إلى 180 تلميذا¹. كما أسست "المنتدى التونسي" وعين عبد الجليل الزاوش² رئيسا لها وعلي باش حامية مساعدا له وحسن قلاتي³ كاتبها فكانت معظم جلسات هذا النادي جلسات تهدف للتنقيف والاطلاع ومناقشة المشاكل⁴.

بعد أن وضعت الحرب أوزارها نهضت جمعية قدماء الصادقية من سباتها فانتخبت سنة 1919م، هيئة مدير جديدة برئاسة حسن حسني عبد الوهاب، وقد عوضه آخر سنة 1923م محمد الأصرم، وفي جانفي سنة 1924م تم انتخاب هيئة جديدة برئاسة مصطفى الكعك الذي بقى على رأس الجمعية حتى سنة 1931م⁵.

ومن سنة 1931 إلى سنة 1934م، تداول على رئاسة جمعية قدماء الصادقية الأستاذ الطاهر صفر 1932م ومحمد بورقيبة 1933م ومحمد المالقي⁶ سنة 1934م، فاتسم نشاطها

¹ - يوسف مناصرية، المرجع السابق، ص 233.

² - عبد الجليل الزاوش: ولد بتونس في 15 ديسمبر 1873م درس بمعهد سان شارل ثم سافر إلى باريس لدارسة الحقوق وتحصل على الإجازة سنة 1900م وعاد إلى تونس وياشر المحاماة ثم تفرغ للأعمال الخاصة وهو من مؤسسي حركة الشباب التونسي وعين عضوا في البلدي والمجلس الشورى وقائداً ووزيراً للعلم وتوفى سنة 1947م. ينظر: الهادي جلاب، النخب الاقتصادية التونسية (1920 - 1956) ظروف نشأتها وأوضاعها، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، جامعة تونس الأولى، 1999م، ص 180 - 182.

³ - حسن قلاتي: ولد بالجزائر سنة 1882م زاول تعليمه الثانوي والجامعي حيث تحصل على إجازة في الحقوق وبعدها باشر المحاماة وكانت له مشاركة فعالة في النشاط السياسي والثقافي وهو من مؤسسي الحزب الدستوري وحزب الإصلاح وتوفى سنة 1966م. ينظر: نور الدين الدقي، المصدر السابق، ص 241.

⁴ - حبيب حسن اللولب، المرجع السابق، ص 234.

⁵ - نفسه، ص 235.

⁶ - محمد المالقي: هو محمد بن الهادي المالقي ولد بتونس سنة 1889م، درس بالمدرسة الصادقية، دخل الحياة الإدارية وعين كاتباً بمحكمة الوزارة سنة 1909م، وفيه سنة 1920 عين مترجماً بالمحكمة، ثم ترقى في سلك الحكام العدليين إلى أن سمي برئيس أول بالمحكمة سنة 1958م، توفي سنة 1980م. ينظر: محمد محفوظ، المرجع السابق، ص 244.

في تلك الفترة بطابع سياسي واضح أكثر فأكثر برغم أن قانون الجمعية يمنع تعاطي مثل هذا النشاط، كما احتضنت الجمعية منذ سنة 1932م الشبيبة المدرسية التي لم تسمح السلطة الاستعمارية بإنشائها فأصبحت فرعاً تابعاً لها، فتمكنت من القيام بنشاطها، بإلقاء المحاضرات وتنظيم الدروس وإقامة المعارض وتكوين مكتبة عمومية، وقد تداول على إدارة الشبيبة المدرسية الحبيب مبارك والباهي الأدغم وعمار الدخلاوي، ولما انتخب على رأسها الأستاذ محمد العنابي من سنة 1934م إلى سنة 1954م عمل على تكثيف نشاطها من خلال النوادي التي ارتفع عددها إلى أربعة وهي:

- النادي الأدبي: الذي وصل نشاطه السابق بإشراف الأستاذ عثمان الكعاك.

- نادي البحوث الاقتصادية برئاسة الطاهر صفر.

- نادي البحوث التشريعية والقانونية برئاسة الأستاذ الهاشمي السبعي.

- نادي البحوث الفلسفية برئاسة رئيس الجمعية ذاته¹.

ولما انتهت مهمة الأستاذ محمد علي العنابي عوضه الأستاذ الطيب السحباني الذي بقي على رأس الجمعية من سنة 1954م إلى سنة 1956م، واعتباراً من ذلك التاريخ أخذ نشاط الجمعية يتقلص شيئاً فشيئاً².

4- النوادي العلمية والفكرية:

أ- المجمع العلمي التونسي:

من أجل النهوض بالواقع العلمي بتونس، شارك أحمد توفيق المدني بمقر نادي قداماء الصادقية رفقة عدد من المناضلين التونسيين في تأسيس "المجمع العلمي التونسي" الذي

¹ - خير الدين شترة، المرجع السابق، ص 673.

² - نفسه، ص 674.

يهدف إلى إعادة أمجاد العلمية التونسية وتبادل الأفكار والآراء¹، يقول أحمد توفيق المدني² في كتابه: "شعرنا في البلاد التونسية ونحن في غمرة الجهاد السياسي الأكبر بنقص علمي عظيم، وتأكد لنا خلال اجتماعاتنا بنادي قدماء الصادقية وجوب تأسيس "مجمع علمي تونسي" حيث شكلت لجنة من: "زين العابدين بن السنوسي"³، أحمد توفيق المدني، محمد بن حسين، عثمان الكعاك، الطاهر صفر، (من أجل تحرير قانون أساسي للجميع، فحرره وحقق فيه وعرضه أحمد توفيق المدني على اجتماع المؤسسين فنقحوا بعضه...)⁴.

الهدف من تأسيسه:

1- إيجاد الألفاظ العلمية والعملية التي تحتاجها اللغة العربية من أجل السير دائما مع الرقي العلمي والتطور الاجتماعي.

2- البحث عن آثار التونسيين العلمية والفنية.

3- تعميم العلم⁵.

وقد جاء في قانونها الأساسي المكون من ثلاثة أبواب الأول يتحدث فيه عن الاسم والغاية أما الباب الثاني فعن الأعضاء والباب الثالث عن المكتب، وأن يكون الأعضاء

¹ - عبد القادر خليفي، أحمد توفيق المدني ودوره في الحياة السياسية والثقافية بتونس والجزائر 1899 - 1983م، (رسالة شهادة الماجستير)، إشراف عبد الكريم بوصفصاف، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، 2006 - 2007م، ص65.

² - أحمد توفيق المدني: هو كاتب ومؤرخ جزائري ولد سنة 1889م بتونس من عائلة جزائرية، بدأ نضاله السياسي في تونس وكان من بين مؤسسي الحزب الدستوري التونسي وله العديد من الإسهامات الفكرية والسياسية في تونس، كما انه شارك في الثورة الجزائرية، توفي بالجزائر سنة 1983م. ينظر: نفسه، ص 48 - 54.

³ - زين العابدين السنوسي: كاتب ومناضل سياسي، ولد سنة 1898م، وهو ابن الشيخ محمد السنوسي، شارك في حركة التجديد الأدبي والفني التي شهدتها أقطار المغرب العربي، و له العديد من المؤلفات والنشريات من أهمها الأدب التونسي في القرن الرابع عشر، توفي سنة 1966م. ينظر: الصادق الزمرلي، المصدر السابق، ص 341 - 342.

⁴ - أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، البصائر الجديدة للنشر، الجزائر، 2013م، ج1، ص394.

⁵ - نفسه.

العاملون من ذوي الجنسية التونسية ومن مدرسي جامع الزيتونة من الدرجة الأولى أو من حاملي شهادات الدكتوراه من الجامعات الأجنبية المعترف بها رسمياً، بعبارة أعم من الكفاءات العلمية المرموقة بحكم طابع المجمع العلمي¹.

ويقوم هذا المجمع بنشر الأعمال الفكرية وغيرها وإدراجها في شكل مجلات شهرية باسمه وعقد المسامرات العلمية والمحاضرات المفيدة قصد إثراء الحياة الفكرية والعلمية بتونس وإعادة مجدها العلمي الغابر، وقدمت هذه الجمعية قانونها الأساسي إلى: الوزير الأكبر للدولة ووكيل الجمهور العام، والمراقب المدني بتونس يوم 15 ماي 1924م، وظلت ود الحكومة الايجابية، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد أبعد الشيخ توفيق المدني وجمد المسعى ولم يكتب لها النجاح².

ب- الرابطة القلمية:

سعى لتوحيد صفوف العلماء والمفكرين والكتاب في رابطة تجمع شملهم وتوحد كلمتهم على قلم واحد قامت ثلة من نخبة الفكر والعلم التونسية في ليلة رمضان الكريم سنة (1342هـ) 1924م، بتأسيس عصابة لرجال الفكر والقلم سموها "الرابطة القلمية"³.

وفي هذا السياق يقول أحمد توفيق المدني: "اتفق الكتاب والمفكرون والممضون أسفله⁴ والذين تربط بينهم الوحدة القومية والفكرية سعياً لإيجاد وسيلة فعالة للتضامن الفكري والعلمي بينهم على تأسيس عصابة تحت اسم "الرابطة القلمية" وجعلوا لهذه الرابطة قواعد وجب الالتزام بها من بينها:

¹ - عبد القادر خليفي، المرجع السابق، ص 66.

² - أحمد توفيق المدني، المصدر السابق، ص 396 - 397.

³ - محمد بوطيبي، دور المثقفين الجزائريين في الحركة الوطنية التونسية ما بين 1900 - 1930، (مذكرة شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر)، إشراف بوعزة بوضرساوية، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2007 - 2008م، ص 117.

⁴ - كان من بينهم أحمد توفيق المدني كاتب عام، محي الدين لقلبي كاتب، زين العابدين أمين عام، عثمان الكعاك كاتب.

- 1- عدم تسخير الكتاب والمفكرين أقلامهم للأغراض الشخصية وعدم بذل كل ما يحط من قيمة الكاتب والكتابة إطلاقاً.
- 2- كل منخرط في سلك العصابة يدفع لخزينتها اشتراكاً سنوياً قدره عشرون فرنكاً تنفق في سبيل غايتها.
- 3- الالتزام بالدفاع التام عن حرية القلم والفكر، والتصدي لكل مسعى مثبط لهذا النهج.
- 4- الالتزام بالدفاع والإسراع لنجدة كل أحد من أفراد عصبتهم، ذهب ضحية تلك الحرية¹.

خلاصة الفصل:

وخلاصة ما نستنتجه هو تعدد المؤسسات الدينية والعلمية بتونس، فكان لتلك المؤسسات دوراً بارزاً انتهجته لنشر الثقافة التونسية والمحافظة عليها، خاصة عند بداية الحركة الإصلاحية التي بدأت من الثلث الثاني من القرن 19م، التي شملت النقاط الرئيسية لهذه الإصلاحات التعليم التونسي آنذاك الذي كان يدرس سواءً في المؤسسات الدينية والعلمية.

كان يهدف هذا المشروع إلى إدخال تعليم من نوع حديث إلى جانب التعليم الأصلي التقليدي المتمثل في جامع الزيتونة العريق، حيث أضيفت فيه علوم دنيوية أو نافعة، مع ظهور مؤسسات فرعية لجامع الزيتونة التي انتهجت التعليم العصري بإدخال تعليم اللغات الأجنبية، والعديد من مواد التعليم الحديثة، ومن بين هذه المؤسسات هي المدرسة الصادقية والجمعية الخلدونية وجمعية قداماء الصادقية، التي انطلقت امتداداً لجامع الزيتونة وكان لها أدوار وطنية وتفرعت عنها مؤسسات أخرى.

بالإضافة إلى تلك المؤسسات الدينية والعلمية، كانت هناك مجموعة من النوادي الأدبية الثقافية التي كانت مسرحاً للمحاضرات والمناقشات حيث لعبت دوراً مكملًا للمدارس العلمية وأسهمت في الحفاظ على الشخصية العربية التونسية والنهوض بالمستوى الثقافي، وتكوين إطارات مثقفة لتسيير شؤون البلاد.

¹ - أحمد توفيق المدني، المصدر السابق، ص 398 - 399.

الفصل الثاني

السياسة الدينية والثقافية الفرنسية بتونس 1881-1881-

1956م

أولاً: السياسة الدينية الفرنسية

- 1- احتواء وحل الأوقاف والأحباس.
- 2- سياسة التصير.
- 3- استفزاز السلطات الفرنسية لمشاعر الشعب التونسي.
- 4- استهداف القضاء والتشريع الإسلامي.
- 5- التقرب من شيوخ الطرق الصوفية.

ثانياً: السياسة الثقافية الفرنسية

- 1- تهميش التعليم التقليدي.
- 2- احتواء التعليم العصري.
- 3- إنشاء مدارس فرنسية.
- 4- سياسة التجنيس.
- 5- التضيق على الصحف والصحفيين التونسيين.

أولاً: السياسة الدينية الفرنسية في تونس 1881-1956م.

لقد تعددت السياسة الفرنسية في البلاد التونسية منذ فرضها للحماية وإلى غاية خروجها والتي من بينها السياسة الدينية التي اتخذتها لتحطيم كل القيود الإسلامية والاستحواذ على أهم مراكزها الدينية مستغلة في ذلك ما يخدم مصالحها الشخصية.

1: احتواء وحل الأوقاف والأحباس:

منذ بداية عهد الحماية بذلت الإدارة الفرنسية كل محاولة لتحطيم القيود التشريعية الإسلامية للأوقاف، رغم كونها تشريعات ثابتة تحرم بيع تلك الأملاك كما يدل على اسمها¹، ومن المؤسف أنهم وجدوا في بعض الرخص الشرعية التي وردت في فتاوى العلماء من هذا وذاك أداة ناجعة لتحقيق هدفهم وحصول أكبر عدد من الأجانب على أراضي البلاد الخصبة ومن هذه الرخص²:

أ- الإنزال:

وفي اللغة هو العطاء وترك الحق، وشرعاً هو كراء أبدي أو لمدة طويلة بالإشهار لتعمير أرض الحبس، والهدف منه حصول الأوقاف على دخل ثابت ومستمر، ولكن لدى علماء المالكية يعد الأمد الطويل غير جائز³، من ذلك أن ابن رشد سئل عن هذا النوع من الإيجار فأجابته أن إيجار الحبس لمدة طويلة يفسخ⁴، وكان أول من أجازته العالم المصري إبراهيم اللقاني المالكي وابنه عبد السلام، ومن هذين العالمين أخذ فقهاء تونس، ولإعطاء الإنزال صبغة قانونية أصدرت سلطة الحماية الفرنسية بتونس قانوناً بتاريخ 1885م، فيه

1 - يوسف درمونة، تونس بين الحماية والاحتلال، د. ط، مطبعة الرسالة، د. د. ن، د س ن، ص 72.

2 - جمعة شيخة، المرجع السابق، ص 10

3 - نفسه.

4 - البرزلي، فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتن والحكم، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002م، ج5، ص 364.

أربعة أبواب و27 فصلاً ترمي كلها إلى هدف واحد هو تلبية رغبات الفرنسيين والأجانب للاستيلاء على العقارات التابعة للأوقاف دون رادع من السلطة¹، وبالإنزال استولى الجيش الفرنسي على الكثير من الأحباس ذات طابع دفاعي كالحصون والأبراج والثكنات، كما هدم بعض المدارس والمساجد لتوسيع أماكن تواجد هذا الجيش².

ولتدعيم قانون الإنزال، عملت السياسة الفرنسية على إصدار مرسوم صادر من الباي في 23 ماي 1888م، وكانت بذلك سلسلة من النصوص التشريعية التي قصد بها للتصرف وجعل أملاك الوقف في تصرف الإدارة الاستعمارية³، كما أصدرت في سنة 1898م قانوناً بموافقة الباي هو قانون التمسك فبموجبه لا تستطيع جمعية الأوقاف إلزام المكترين للحبس - أغلبهم من الأجانب - بالزيادة في القيمة الكرائية التي اهترأت بمرور الزمن، كما لا تستطيع إخراج المكترين رغم أن بعضهم رفض مجرد دفع معلوم الكراء على بساطته.

وقد عارض علماء الزيتونة قانون الإنزال وقانون التمسك وصدرت مجلة العقود والالتزامات التونسية سنة 1906م للوقوف أمام تلك التصرفات غير الشرعية وطلبت الجمعية بالإعفاء من قانون التمسك لكن دون جدوى⁴.

ب- المعاوضة أو الاستبدال:

هو مصطلح فقهي نجده لدى علماء تونس من المذهبيين المالكي والحنفي، والمقصود منه تعويض الأملاك المحبسة ذات النفع المحدد جداً أو عديمة النفع بأملك أخرى،

1 - جمعة شيخة، المرجع السابق، ص11.

2 - نفسه، ص11.

3 - يوسف درمونة، المرجع السابق، ص72.

4 - جمعة شيخة، المرجع السابق، ص12.

كتعويض عقار بعقار أو بيع عقار قديم وبثمنه يقع شراء عقار آخر جديد يصبح حسباً مكان الأول¹.

وبالتالي استولت الإدارة الفرنسية على الأوقاف الخيرية - في بادئ الأمر - لكي تخفف من وقع صدمة الحماية التي سوف يتلقاها التونسيون الذين يعيشون من هذه الأوقاف، تجنبت مؤقتاً الاستيلاء على الأوقاف الأهلية².

ولما كانت أراضي الأوقاف غير قابلة للبيع فقد بحث الفرنسيون في الفقه الإسلامي عن الحل الذي يسهل على المستوطنين الاستيلاء على هذه الأراضي بالوسائل الملتوية، فتشبثوا برأي ضعيف في مذهب مالك يبيح الإجازة المستديمة للأراضي الموقوفة، وبرأي آخر في مذهب أبي حنيفة يبيح جواز استبدال العقار الموقوف بعين أخرى إذا كان في مصلحة الواقف³، ولتقنين عملية السطو على الأوقاف أصدرت سلطات الحماية قانون المعاوضة في سنة 1889م، كما أصدرت في نفس السنة قانون انتزاع الأحباس وبهذين القانونين انقلبت المعاوضة شيئاً فشيئاً من حفظ للوقف إلى سلب له، إذ أصبحت المعاوضة طريقاً سهلاً للاستحواذ على أراضٍ شاسعة أعطيت للأجانب⁴، وهكذا بموجب تشريعات السلطة حصل المستوطنون على إمكانية الشراء أو البيع من أراضي الأوقاف رغم عدم إلغاء ملكية الأوقاف⁵.

1 - جمعة شخة، المرجع السابق، ص 11.

2 - صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر الجزائر، تونس، المغرب الأقصى، ط6، مكتبة الأنجلو المصرية، 1993م، ص 199.

3 - نفسه.

4 - جمعة شخة، المرجع السابق، ص 12.

5 - عبد المالك خلف التميمي، أضواء على المغرب العربي رؤية عربية مشرقية، تصدير نصر الدين سعيدوني، دار البصائر، الجزائر، 2011م، ص 36.

فصدر مرسوم آخر عن الباي في 13 نوفمبر 1898م الذي ينص على استبدال الوقف العام أو الخاص سواء عيّنًا أو بإعطاء عقار بدلا منه بقيمة تعادله¹، وأن تضع كل عام تحت تصرف إدارة الاستعمار جزءًا من أراضي الأوقاف العامة لا تقل مساحتها 2000 هكتار، على أن يتم نقل الملكية بين إدارة الأوقاف وإدارة الاستعمار مباشرة وبدون إشهار².

فكان لإدارة الاستعمار الحق في اختيار أراضي الأوقاف التي تقرر الاستيلاء عليها وهي تفوض خبيرًا زراعيًا مباشر وحده بتقويم الأرض، ويكون رأيه فاصلا في تقدير القيمة وأيضا في جميع شروط نقل الملكية، دون أي ضمان لمصلحة الوقف³.

فكان يمنح للمستوطنين نحو 1000 هكتار سنويا من أراضي الأوقاف الشاسعة التي تعطى 31 من الأراضي المزروعة في شمال تونس، مقابل إيجار سنوي ضئيل ولكن المستوطنين لما لهم من نفوذ على الإدارة لم يحترموا شروط الاستغلال فكفوا عن دفع الإيجار منذ سنة 1905م، وفي سنة 1904م قدم المستوطنون اقتراحًا بانتزاع الأوقاف الأهلية أيضا⁴.

وهكذا بدلت أغلب الأراضي الوقف بدكاكين وبيوت في بعض المدن والقرى، وهذه من غير شك عرضة دائما للخراب والإتلاف⁵.

1 - يوسف درمونة، المرجع السابق، ص72.

2 - صلاح العقاد، المرجع السابق، ص199.

3 - الحبيب ثامر، هذه تونس، د. ط، مطبعة الرسالة، د. ب. ن، د. س. ن، ص46.

4 - صلاح العقاد، المرجع السابق، ص199.

5 - يوسف درمونة، المرجع السابق، ص72.

فلم تحترم فرنسا الشريعة الإسلامية التي قضت بأن الوقف ملك لا ينقطع، وأنه لا يباع ولا يرهن ولا يوهب ولا يعوض، كما لم تحترم إدارة الوقف، فأعلنت أن المؤسسات الخيرية كالمساجد والمستشفيات، ودور العلم لا يجب أن توقف من أجلها الأراضي، قررت أن تعوضها بالمباني والفنادق أو تعويضها بالمال وأن هذا التعويض مباح ومرغوب فيه¹.

ج- المغارسة:

ونقصد بها إعطاء جمعية الأوقاف أراضي الأحياس المهمة والتي انعدمت منها الاستفادة إلى من يقوم بغرسها واستثمارها طبقاً للنصوص الفقهية المعمول بها في المغارسة. وحسب المذهب المالكي المغارسة في أراضي الأحياس باطلة وأجازوها للتونسيين استثناءً وعن طريق القضاء الشرعي فقط، وبغياب السلطة الرادعة أصبح الاستثناء قاعدة في بداية القرن 20، وفتح المجال للأجانب في المغارسة فتلاشى الكثير من أراضي الأحياس².

حاولت الجمعية بمساندة علماء جامع الزيتونة معارضة قانون الإنزال والتمسك والمعاوضة والمغارسة، فقامت السلطات الفرنسية ببعث مجلس أعلى سنة 1908م للأوقاف كمؤسسة موازية لجمعية الأوقاف وموالت لها ومدافع عن قراراتها حول الحبس، ثم تقدمت خطوة أخرى للتضييق على الجمعية بتعيين معتمد حكومي في صلب هيئة جمعية الأوقاف، وهكذا حوصرت الجمعية بهذا المجلس الأعلى والموظف السامي³.

وصل الأمر إلى جبر الجمعية لتقوم بإصلاح العقارات التي خرجت من تحت تصرفها عن طريق الإنزال والمعاوضة والمغارسة من ريع الحبس، كما تم عن طريق هذه الرخص

¹ - الحبيب ثامر، المصدر السابق، ص 47.

² - جمعة شيخة، المرجع السابق، ص 13.

³ - الشيباني بن بلغيث، المرجع السابق، ص 281.

الاستيلاء على حبس عزيزة عثمانة¹ وحفيدتها فاطمة عثمانة سنة 1926م التي كانت تدر على الجمعية خيرا كثيرا يساعدها على القيام بواجبها نحو المؤسسات الخيرية وخاصة الاستشفائية منها².

فكان ضعف الوازع الديني والرخص هما العاملين الأساسيين في انهيار جمعية الأوقاف على المستويين الإداري والمالي كالتالي:

عاشت جمعية الأوقاف من سنة تأسسها 1874م إلى سنة حلها 1956م، 82 سنة منها سبع سنوات قبل الحماية و75 سنة بعد الحماية فقاومت قبل الحماية جشع أصحاب النفوذ من حاشية الباي وطمع من عين أقرانهم سواء من النواب أو الوكلاء على الأوقاف، فزاد الطمع والجشع كلما ضعف الوازع الديني أخلاقيا ونقصت المراقبة إداريا، لكن في هذه الفترة الوجيزة برز من العلماء والمصلحين من جعلها تتدارك - ولو نسبيا - ما حدث للأوقاف من خلل طول سبعة عقود من القرن 19، أما بعد الحماية واختلال ميزان القوى بين سلطة الحماية وجمعية الأوقاف فقد سارت أمور الأوقاف من سيء إلى أسوأ³.

واتضح التدخل الإداري في إدارة الجمعية بعد الحرب العالمية الأولى، وذلك بإصدار سلطة الحماية مجموعة من الأوامر والقوانين والتعيينات لرؤساء ومديرية ومن أبرز هذه التدخلات هو إعطاء رئاسة الجمعية بداية من سنة 1922م إلى سنة 1956م الولاية المتقاعدتين وإزاحة من كانوا أقرب إلى روح هذه المؤسسة الدينية من علماء الزيتونة ومن المصلحين المعروفين بتوجههم الوطني والإصلاحي⁴.

¹ - عزيزة عثمانة: هي حفيذة عثمان داي، وقد عرفت في تاريخ تونس الحديث والمعاصر بالمرأة المحسنة واشتهرت في الأوساط الشعبية بارتباط اسمها بالمستشفى الذي يحمل اسمها والذي هو من الجهات التي خصصت لها أحباسها. ينظر: الشيباني بن بلغيث، المرجع السابق، ص193.

² - جمعة شيخة، المرجع السابق، ص13.

³ - نفسه.

⁴ - نفسه، ص14.

وكانت أملاك الأوقاف خاصة الزراعية قرب العاصمة مسرحا لمعارك الحرب العالمية الثانية، فأصاب التدمير الموقوف والموقوف عليه من المساجد والمدارس والمباني الموقوفة، واحترقت مزارع الزيتون أو اقتلعتها الجنود حطبا، وامتألت الحقول بالألغام والقنابل وحطام الحرب¹.

ولكن الجمعية رغم تلك الخسائر الفادحة فإنها لم تكن من أولويات مشروع الإصلاح بعد الحرب، فبقيت المعاهد التونسية والمساجد والكثير من أملاك الجمعية في حالة خراب طيلة 5 سنوات، ورغم التوسع في رخص المغارسة والمعاوضة في أرض الأوقاف لم يتوقف التدهور الحاصل لمداخل مؤسسات الأوقاف، ولم تأت سنة 1955م حتى كانت الجمعية مشرفة على الإفلاس كما عبر عن ذلك رئيس الجمعية نفسه محمد المنصف الجويني في تقرير له عن الجمعية إلى وزير المؤسسات الإسلامية والذي يقول: <<إن الجمعية تشرف الآن على هوة الإفلاس بسبب قلة الموارد في الأعوام الأخيرة، وإذا لم تأخذ الحكومة بالوسائل الكفيلة بإنقاذ الموقف فإن الحالة آذنه لا محالة لإفلاس...>>².

2- سياسة التنصير:

لقد كتب أحد مؤرخي التبشير الفرنسيين معبرا عن هذا الاتجاه ومن أهم المشاريع المسيحية تتمثل في الإحسان والتعليم وأن على فرنسا القيام بذلك باعتبار أن ذلك يساهم في نشر لغتنا وحضارتنا وتأثيرنا في كل مكان وأن "الصلبية اللينة والسلمية - على حد قولهم - لا تبقى وراءها إراقة الدم ويستوجب الأخذ بالتأثر والحقد والكراهية المتبادلة بين الغالبين والمغلوبين وعلى أنها أفضل وسيلة من قوة السيف القاطع، وسوف تحصل هاته الصليبية مع الزمن على أضمن نجاح وبقاء..."³.

¹ - الشيباني بن بلغيث، المرجع السابق، ص ص 282 - 283.

² - نفسه.

³ - Victor Guerin, *la France catholique en Tunisie a malte et en tripolitaine*, tours, 1890, pp11 - 12. <http://gallica.bnf.f.2019/06/29.18.27> سا.

ولإنجاح هذه الصليبية اللينة والسلمية - كما عبر عنها- يجب على المبشرين أن يعرفوا تاريخ ولغة وعادات وأخلاق الشعب الذي يعيشون بينه حتى يضمنوا عطفه وكسب مشاعره، وقد كتب الأب بورغاد "Bourgad"¹ في هذا الصدد الذي لعب دورا هاما في تنشيط حركة التبشير بتونس "امدحوا كبراءهم، وارفعوا معنوياتهم، ...تحدثوا للعرب عن تاريخهم وأعمالهم العلمية، أعطهم فكرة عن كانوا في الماضي ثم احترامك لثروتهم هي وسيلة لجعلهم أكثر استعدادا لتقييم ثروتنا"².

أساليب سياسة التنصير:

1/ الأعمال الخيرية:

لقد تظن العديد من رجال الدين المسيحي إلى القيام بعمليات تنصيرية لانتزاع الإسلام من نفوس معتقيه وذلك لن يكون عن طريق السلاح والقوة، إنما عمدوا إلى أسلوب جديد يتمثل في القيام بأعمال خيرية، فأراد رجال الدين استغلال ما جاء به الإنجيل من مبادئ وقيم لخدمة أهدافهم ذلك أن الإنجيل كان يدعو إلى استعمال الخير والبر والإحسان والرحمة بالإنسان وهذا ليس أمراً غريباً على كتاب نزل من عند الله سبحانه وتعالى، فاستغل رجال الدين هذه الأمور ووظفوها لصالحهم، كانوا يزعمون أنهم يقومون بهذه الخدمات تحت ما يدعو إليه الإنجيل لكنهم في الواقع كانوا يبتغون من ورائها هدفاً آخر وهو ترغيب التونسيين في الديانة المسيحية حتى يعتنقونها، وفي هذا الإطار يقول ليون روش "Leon Roche"³:

¹ - بورغاد: هو فرانسوا بورغاد ولد سنة 1806م، مستشرق ومبشر فرنسي في المغرب العربي، انتقل إلى تونس سنة 1840م وأنشأ بها مطبعة، له بالعربية والفرنسية "مسامرة قرطاجنة" وهي مناظرة جعلها بين قاض ومفتي وراهب، توفي سنة 1866م. ينظر: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج5، ص139.

² - عبد الجليل التميمي، "دور المبشرين في نشر المسيحية بتونس 1830 - 1881م"، المجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد3، 1975م، ص7.

³ - ليون روش: هو شخصية مغامرة يتمتع بذكاء حاد وجرأة في نشاطه المستمر، ولد في مدينة غرونبل بفرنسا يوم 27 سبتمبر 1809م، حيث قام الجاسوس الفرنسي خلال القرن التاسع عشر بأعمال تخريبية هدامة في المغرب العربي، ارتبطت فيها مغامراته الجاسوسية في الجزائر وبمهام دبلوماسية في المغرب ونشاطه التبشيري في تونس، توفي=

"غير أننا نستطيع أن نهيبئ لدى العرب وبالأخص القبائل، عصر تمسيحهم بإقامة عدد من المبشرين ضمنهم، تكون مهمتهم الوحيدة تعريفهم بالأخلاق المسيحية وتمريض مرضاهم وتعليمهم لغتنا وتلقينهم مبادئ المعرفة العامة"¹.

ومن بين منتهجي هذه الطريقة الكاردينال شارل لافيغري "Charles Lavigerie" في البلاد التونسية حيث كان تبريره هو التقرب إلى الله إذ يقول: "إنني حين أعيل الأرامل والأطفال بما أستطيع فإنما أعين السكان المسلمين لأؤدي واجبي كإنسان وكمسيحي وكأسقف وليس لي من طموح سوى أن أظهر مرة أخرى الخصائص الإلهية لدين يأمر بحب كل الناس وإسعافهم مهما كانوا ولو كان ذلك للمخاطرة بالنفس"².

وبناء على ذلك أقر رجال الكنيسة مبدأ الأعمال الخيرية منطلقين من قاعدة رئيسية وهي الإحسان إلى الناس يستعبد قلوبهم، أرادوا بأسلوب الخداع جلب المسلمين إلى الدين الإسلامي وخاصة أنهم يعلمون حاجة الناس إلى تلك المساعدات والإعانات لأنهم كانوا في تلك الفترة يتخبطون في الفقر والخصاصة والبؤس"³.

كما أرادوا من خلال هذه الأعمال الخيرية أن ينافسوا الإسلام باعتباره دين إحسان وبر، وكانوا يرددون في هذا الإطار "نحن نعتني بالعمل الاجتماعي المسيحي لأن المسلمين يدعون بأن في الإسلام ما يكفي كل حاجة اجتماعية للبشر في فترة مبكرة فعلينا أن نقاوم الإسلام بالأسلحة الروحية المتمثلة في الخدمات الاجتماعية"⁴.

=سنة 1901م. ينظر: يوسف مناصرية، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832 - 1847م، مؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م، ص ص 13 - 15.

¹ - ريم غانمي، المرجع السابق، ص 55.

² - عبد المجيد الشرفي، "الحركة التبشيرية في تونس خلال القرن التاسع عشر"، حوليات الجامعة التونسية، تونس، عدد 8، 1971م، ص ص 144 - 145.

³ - نفسه.

⁴ - خالد مصطفى وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 1986م، ص 191.

من أجل ذلك كثف المسيحيون من مشاريعهم الخيرية مثل بناء المجمعات السكنية وتوفير الوسائل الترفيهية التي يصل الراهب من ورائها إلى نفس الشاب المسلم، كما سخروا الراهبات لزيارة بيوت المسلمين لمعرفة أسرار البيوت من الداخل والسيطرة على ربات البيوت الإسلامية واستقطابهن وإعدادهن لتقبل الدين المسيحي لأنهم يعلمون جيدا دور المرأة أو الأم داخل الأسرة إذ هي قادرة على تغيير تركيبة الأسرة بأكملها ومن ثمة تركيبة المجتمع بأسره¹.

2/ استعمال التطبيب كوسيلة للتنصير:

استغل رجال الكنيسة التمرريض لدعم مشروعهم وذلك نظرا لأهمية الصحة عند الإنسان، إذ قاموا بإنشاء العديد من المستوصفات وتشبيد العديد من المستشفيات من بينها مستشفى سان لوي، حيث استغل هؤلاء آلام المريض هو أضعف الناس على الإطلاق وعملية التأثير عليه هي أقرب إلى النجاح أكثر من غيره، فحيثما وجد الشر وجد المرض وحيثما يوجد المرض تكون الحاجة ماسة إلى طبيب وهي فرصة لإدخال هؤلاء إلى حظيرة النصرانية، كما أنشئ سنة 1910م مستوصف "آلابيتيت" الذي كان هدفه هو تقديم الخدمات الطبية المجانية لأبناء الفقراء الذين تستوجب حالتهم الصحية الإيواء بالمستشفى².

لقد عرف رجال الكنيسة نقاط ضعف الإنسان فاتخذوا الطب وسيلة من وسائلهم التنصيرية، فكانوا لا يفحصون المريض إلا بعد أن يرغموه على الاعتراف بأن الذي يشفيه هو السيد المسيح فعليه مناجاته وحمل الصليبية والتعلق به، فهم يستغلون وضعية المريض ويرغموه على قول وفعل أشياء لن يقبل بها إن كان في غير هذه الوضعية³.

¹ - عبد المجيد الشرفي، المرجع السابق، ص ص 151 - 152.

² - عبد الرحمن الونيسي، السياسة الصحية بتونس في عهد الحماية (1881 - 1939)، (رسالة لنيل شهادة الدكتوراه)، إشراف خليفة الشاطر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، 2002 - 2003م، ص 239.

³ - نفسه، ص 240.

قام لافيغري¹ بتوسيع مستشفى سان شارل وإنشاء مستشفى آخر بالثكنة العسكرية بباردو، كما طالب السلطات بفتح مكان للبر والإحسان بالمنستير وكان يصرح دوماً: "ساعدوا الفقراء جميعاً وعالجوا جرحاهم، داووا مرضاهم، إنكم بذلك تشرفون عقيدتكم وتخدمون فرنسا المسيحية ذلك أن طريقتنا لخدمتها وللدفاع عنها ليس لجعلها مخفية ومروعة بل لجعل الآخرين يحبونها بفضل أخلاقنا وإحساننا"².

3/تنصير الأطفال اليتامى والفقراء والمتشردين:

وتماشياً مع مبدأ الإحسان قام لافيغري أيضاً بتأسيس عدة ملاجئ للأيتام واللقطاء وكمثال على ذلك: الدار التي أسسها بقرية تيبوار بولاية باجة حيث وضع بها عدداً كبيراً من الأطفال، كما كان يجمع أيضاً أطفال تونس العاصمة المهملين ويرسل بهم إلى الحراش بالجزائر حيث يتلقون هناك تعليم المسيحية ليثبوا على النصرانية منذ الصغر فيسهل التأثير عليهم وتكوين جيش منهم يعمل لصالح فرنسا، يقول لافيغري في هذا السياق: "على فرنسا أن تربيهم وتعددهم إعداداً فرنسياً إن لم يكن غربياً فهم في واقعهم أبناء فرنسا..."³

لم يقع اهتمام لافيغري على الأطفال اليتامى واللقطاء فحسب بل اعتنى أيضاً بالنساء الضاللات حيث أسس لهن ملجأ الأخوات البيض في الدار الهولندية بالمرسى سنة 1885م، أين سيخضعن لنظام دراسي تطبيقي حيث سيتدربن على الأعمال اليدوية من خياطة وتطريز

¹ - لافيغري: هو الكاردينال شارل لافيغري أسقف فرنسي، ولد سنة 1825م بمدينة بايون في شرقي فرنسا، مؤسس المدرسة التنصيرية بالمشرق، وأطلق عليه والد البيض المسحيين، نشر لواء المسيحية في إفريقيا الشمالية، اشتهر بحماسه ويعمله لدمج المغرب بفرنسا وتوفي سنة 1892. ينظر: الطاهر المناعي، المثقفون التونسيون والحضارة الغربية في مابين الحربين العالميتين (1919 - 1939)، ط1، دار المعارف، سوسة - تونس، 2002م، ص240.

² - عبد الجليل التميمي، المرجع السابق، ص16.

³ - نفسه.

وفلاحة وزراعة، بهدف إدخالهن سلك الرهينة ويصبحن يدا عاملة منتجة تعمل لتساعد الفئة المنتمية لها¹.

هكذا إذن حاول لافيغري² الحضور بين كافة الطبقات والمستويات مستغلا أي فرصة من أجل تحقيق أهدافه، وقد لقي صحبة أصدقائه دعما كبيرا من السلطات الفرنسية، إذ كانت تقدم لهم الدعم المادي والمعنوي لبناء مشاريعهم الخيرية لأنها كانت مؤمنة بأنها الطريقة الأفضل لاستقطاب عدد كبير من الشعب التونسي نحو النصرانية³.

3- استفزاز السلطات الفرنسية لمشاعر الشعب التونسي:

عمل رجال الإدارة الاستعمارية شعورا منهم بخطورة الإحساس الديني لدى المسلمين من تكثيف مجهوداتهم قصد محاصرة الإسلام ومحاولة إضعاف شأنه وزعزعة عقيدته في نفوس الشعب التونسي ومن أهم أعمالهم تتمثل في:

1/ إقامة تمثال الكاردينال لافيغري:

تخليداً لذكرى بعض الشخصيات قامت سلطات الحماية بإقامة تماثيل متحدية بذلك شعور التونسيين نظرا لما تحمله هذه التماثيل من أبعاد رمزية، ومن بين هذه التماثيل⁴ التي سعت الحكومة الفرنسية إلى وضعها في البلاد تمثال الكاردينال لافيغري⁵، حيث فكرت

¹ - ريم غانمي، المرجع السابق، ص 36.

² - حيث كان هدف لافيغري هو دعم الحماية الفرنسية على تونس لعلاقته بالسياسة الفرنسية وتعاونهم معه لأنه كان على اطلاع واسع بما يحدث في القصر التونسي، وكذلك معرفته الدقيقة بشخصية باي تونس وأخويه علي والطيب، ينظر: شاوش حباسي، آراء واقتراحات الكاردينال لافيغري في السياسة الاستعمارية في الجزائر وتونس، مجلة الميرز، الجزائر، 2001م، ص 116 - 117.

³ - مشرفية مديحة، المرجع السابق، ص 81.

⁴ - ومن بين التماثيل نجد في رأس اكبر شارع بالعاصمة التونسية حيث ينزل القادمون من البواخر في الرصيف تجد تمثال "جول فيري" بطل احتلال تونس مصغرا خده يرمز إلى كبرياء الاستعمار وتونس المسكينة في صورة امرأة بدوية تقف تحت رجليه على أطراف أصابع قدميها تقدم له خيراتها ممثلة في عرجون من التمر. ينظر: مكتب استعلامات اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي، مأساة عرش، د. ط، د. د. ن، د. س. ن، ص 236.

⁵ - ينظر الملحق رقم 04، ص 139.

سلطة الحماية بالتعاون مع الكنيسة المسيحية في إقامة احتفالا بمرور مائة سنة على ولادة لافيغري فطلب صاحب كنيسة قرطاج من المجلس البلدي بتونس أن يقام له تمثال تخليدا لذكراه ومزاياه على المسيحية، وبالفعل استجابت البلدية إلى هذا الطلب في 23 نوفمبر 1925م حيث قامت بتتصيه في احتفال بهيج في مدخل المدينة العتيقة بباب البحر وهو الطريق المؤدية إلى جامع الزيتونة، كان حاملا في يده اليمنى الصليب وفي يده اليسرى الإنجيل مما جعل الزائر الغريب للبلاد يعتقد أن دين هذه البلاد هو الدين المسيحي لا الإسلامي، ولكن لماذا وقع اختيار هذه الشخصية دون غيرها لتجسيد هذا التمثال؟¹.

مما لا شك فيه أن المسيحيين أرادوا من خلال وضع هذا التمثال تكريماً لهذه الشخصية الدينية لما قامت به من جهود جبارة من أجل إرساء المسيحية في البلاد التونسية خصوصا وفي شمال إفريقيا عموما، فهو بالفعل يمثل الزعيم المسيحي الأول، سبق وأن عرجنا على الأعمال التي قام بها هذا الرجل سواء في تدعيم الاستعمار أو تنظيم النشاط الاجتماعي أو التعليمي².

2/المؤتمر الافخارستي:

تعد فترة الثلاثينات من أخرج الفترات التي مرت بها أقطار الشمال الإفريقي، حيث عمدت فرنسا خلال هذه الفترة إلى تحدي الشعور الديني لأهالي هذه الأقطار ففي تونس حضرت احتفالا كبيرا بذكرى خمسين سنة لاحتلالها البلاد التونسية، وقد تزامن هذا الاحتفال مع قيامها بالمؤتمر الافخارستي³ وهو يعد من الأنشطة الدينية البارزة التي قام بها رجال الكنيسة ضمن الأنشطة المرسومة لتتصير الشعب التونسي⁴.

¹ - مكتب استعلامات اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي، المصدر السابق، ص 236.

² - ريم غانمي، المرجع السابق، ص 37.

³ - ينظر الملحق رقم 05، ص 140.

⁴ - الأفخارستي: الافخارستا أو سر التناول أو القربان المقدس هو أحد الأسرار السبعة المقدسة في الكنيسة الكاثوليكية والارثوذكسية. ينظر: محمد السعيد عقيب، "المؤتمر الافخارستي بقرطاج ماي 1930م وتطور العمل الوطني بتونس"، مجلة البحوث والدراسات، الجزائر، عدد 22، صيف 2016م، ص 12.

عمدت الكنيسة بالتعاون مع سلطة الحماية بإقامة تظاهرة دينية مسيحية عالمية بتونس بضواحي قرطاج من 7 إلى 11 ماي 1930م¹، فخصصوا مبلغ مليوني فرنك لتغطية نفقاته من الميزانية العامة التونسية²، ولم يقع اختيار البلاد التونسية لاحتضان هذه التظاهرة اختياراً عشوائياً إنما كان لغاية كامنة في نفوس رجال الدين المسيحي وهي زعمهم أن مدينة قرطاج هي رقعة مسيحية وأن كنيسة قرطاج هي أم الكنائس الإفريقية التي أنجبت القديس أوغستين "Augustin" فهم يعتقدون أن العرب أكرهوا المسيحيين على اعتناق الإسلام عندما فتحوا إفريقيا، وبالتالي فالمسلمون الذين يعمرّون إفريقيا اليوم هم في أصلهم مسيحيون ومن واجبهم إرجاعهم إلى أصلهم الأول³.

3/الاحتفال بخمسينية فرض الحماية:

لم تمض سنة أو أقل على انعقاد المؤتمر الافخارستي، حتى شرعت سلطات الحماية في الإعداد للاحتفال بخمسينية بسط حمايتها على تونس سنة 1931م وهو احتفال تريد فرنسا من ورائه تأكيد هيمنتها على البلاد التونسية وفرض سيطرتها بدون رجعة، كما أرادت من وراء حملة إعلامية منظمة إبراز المنجزات الفرنسية واستعراض قوتها والتعبير عن اعتزازها بما حققتة السياسة الاستعمارية في "تونس الفرنسية" في إطار ما تسميه بـ"المهمة الحضارية"، والأدهى والأمر من كل ذلك هو أن سلطات الحماية قد كلفت الميزانية التونسية 300مليون فرنك من أجل إعداد الاحتفال في وقت كان السكان التونسيون في أشد الحاجة إليها إذ اجتاحت فيه المجاعة نقاطا عديدة من الإيالة⁴.

1 - الطاهر المناعي، المرجع سابق، ص232.

2 - جاسم محمد حسن العدول وآخرون، تاريخ الوطن العربي المعاصر، دار ابن الأثير للنشر، جامعة الموصل، 2005م، ص504.

3 - عبد الكريم عزيز، المرجع السابق، ص202.

4 - حفيظ طبابي، الحزب الحر الدستوري التونسي 1934 - 1938م، ط1، المطبعة المغاربية للنشر، أريانة - تونس، 2011م، ص38.

4/دفن التونسيين المتجنسين في المقابر الإسلامية:

لقد استأنفت السلطات الفرنسية في أواخر عام 1932م سياسة (فرنسة) البلاد التونسية بإغرائها على الجنسية الفرنسية، وعارض الشعب هذا الإجراء بمنع دفن الموتى من المتجنسين في المقابر الإسلامية، وردت السلطات الفرنسية على ذلك بأن استصدرت فتوى من بعض رجال الدين بقسميه الحنفي (شيخ الاسلام محمد بن يوسف) والمالكي (شيخ الاسلام الطاهر بن عاشور) فتوى تقر مبدأ دفن المتجنسين في المقابر الإسلامية بشرط النطق بالشهادتين ورغم بعض الاحتراز الذي أبداه القضاة المالكيون فان هذه الفتوى لم ترض الأهالي فرفضوا يوم 14 افريل 1933م أداء صلاة الجمعة وراء قضاة المجلس الشرعي¹. فحواها أن التجنيس بالجنسية الفرنسية لا يشكل خروجاً عن الدين الإسلامي، وعليه فلا ضرر في دفنهم في المقابر الإسلامية، ولما حاولت السلطات الفرنسية استخدام القوة في تنفيذ قرارها بدفن المتجنس في المقابر الإسلامية، تصدى الشعب لها، وقام بإضرابات ومظاهرات اشتبك خلالها مع السلطات الفرنسية، وقد ذهب ضحيتها الكثيرون، لا سيما في مدينة المنستير، مما اضطر السلطات الفرنسية إلى العدول عن موقفها وتم تخصيص مقابر خاصة بالمتجنسين².

4- استهداف القضاء والتشريع الإسلامي:

يشكل ميدان القضاء والتشريع الإسلامي مجالاً ثانياً يمكن أن تختبر فيه علاقة الاستعمار بالمؤسسات الدينية، فكانت الإدارة الفرنسية تتعامل مع هذه الحالة مع نخبة دينية تختلف عن أهل الطرق والزوايا على مستويين:

¹ - محمد الأزهر الغربي، تونس رغم الاستعمار، ط1، دار نقوش عربية، تونس، 2013م، ص275.

² - جاسم محمد حسن العدول، المرجع السابق، ص505.

أولهما: أنها تتوفر على تنظيم والمركزة منذ إيجاد مجالس الشرع، وليس فيها الطابع الانقسامي الذي أتاح للاستعمار اللعب على تنافس الطرق¹.

ثانيهما: أنها تستمد شرعيتها من الموروث الفقهي الإسلامي كأداة للضبط الاجتماعي. من نتائج هذا الوضع ما يلاحظ من اختلاف بين مستوى التنظيم العدلي الذي حكمته المصالح الفرنسية، ومستودع التشريع الذي عكس هاجس الاستمرار والتكيف لدى رجال الشرع².

فتعددت مؤسسات القضاء ففي تونس لا يوجد قضاء واحد بل خمسة: القضاء الفرنسي وهو امتداد للحكم الفرنسي، وقضاء تونسي إسلامي، وآخر يهودي، ورابع علماني، وخامس قضاء مختلط (تونسي- فرنسي)³.

فسوف نأخذ مثالا نوعين من القضاء: محاكم فرنسية، ومحاكم تونسية، فالمحاكم الفرنسية لا يرجع فيها النظر فيها إلى السلطة التونسية، بل هي تابعة للسلطة الفرنسية وكذلك نظامها هو نظام المحاكم الفرنسية في فرنسا⁴.

وقد حلت هذه المحاكم محل المحاكم القنصلية، التي كانت موجودة في عهد الامتيازات الأجنبية قبل الحماية، وكان يبلغ عددها 15 محكمة، فبدأت فرنسا بإلغاء محكمتها القنصلية وعوضتها في 27 مارس سنة 1883م بالمحاكم الفرنسية، لأنها تعهدت باحترام المعاهدات والاتفاقات الموجودة بين تونس والدول الأجنبية، فاستصدرت من الباي أمرا في 5 ماي 1883م ينص على أنه إذا ألغت دولة من الدول محكمتها القنصلية فإن رعاياها يصبحون

¹ - عبد اللطيف الهرماسي، المجتمع والإسلام والنخب الإصلاحية في تونس والجزائر -دراسة مقارنة من منظور علم الاجتماع التاريخي - ، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2018م، ص142.

² - نفسه، ص143.

³ - عبد العزيز الثعالبي، المصدر السابق، ص69.

⁴ - الحبيب ثامر، المصدر السابق، ص71.

تابعين للمحاكم الفرنسية فسعت فرنسا مع جميع هذه الدول وعقدت معها الاتفاقات حتى تم إلغاء آخر محكمة قنصلية في 15 أوت سنة 1884م.

وهكذا عمدت فرنسا إلى الحد من سلطة الدولة التونسية في ناحية القضاء واهتمت بنفسها والنظر في قضايا رعايا الدولة وزيادة على قضايا رعاياها، فكانت في تونس محاكم فرنسية ومحاكم تونسية¹.

1/ القضاء الشرعي:

يختص في النظر في الأحوال الشخصية والعقارات غير المسجلة ويتولى القضاء الشرعي في العاصمة محكمة شرعية بها دائرة حنفية ودائرة ملكية وللمحاكمين حق الالتحاق إلى أية محكمة أرادوا وتخضع كل هذه المحاكم لوزارة العدل التي يديرها موظف فرنسي².

2/ القضاء المدني:

كان القضاء المدني في تونس قبل الحماية يشمل أربعة أقسام: القسم الإداري وقسم الشؤون المدنية وقسم الجرح وقسم الشؤون الخارجية، فقد ألغي هذا الأخير إذ أصبحت الشؤون الخارجية بيد المقيم العام الفرنسي³.

فنظام القضاء في تونس قبل فرض الحماية كان قائماً على أساس الفصل بين السلطات بموجب "الدستور التونسي" الذي أعلن عنه سنة 1861م، لكن الإدارة الفرنسية لم تعترف بها لكنها سارت بنظام القضاء على مبدأ الفصل بين السلطات حتى أنه لم يبق بيد الباي إلا حق العفو على المحكوم عليه بالإعدام⁴.

¹ - عبد اللطيف الهرماسي، المرجع السابق، ص144.

² - محمد بوزغية، شيخ الإسلام محمد العزيز جعيط - حياته. إصلاحاته. وآثاره، الدار المتوسطة، تونس، 2010م، ص155.

³ - الحبيب ثامر، المصدر السابق، ص 71 - 72.

⁴ - عبد العزيز الثعالبي، المصدر السابق، ص70.

ولم يتخذ القضاء في تونس في أول الأمر صبغة العادية، فكانت المحاكم خاضعة للإدارة خضوعاً تاماً إذ كان للإدارة الحق في استئناف الأحكام الصادرة أمام لجنة إدارية، وكان الحاكم مجرد موظفين خاضعين لسلطة الإدارة الفرنسية¹.

كما نظمت المحاكم التجارية والجنائية لتشكّل جزءاً من مؤسسة عدلية خاضعة للمراقبة الفرنسية، ولأجل تسهيل عملية الاستيلاء على الأراضي، بعث لجنة تونسية فرنسية بمشاركة فقهاء تونسيين في مقدمتهم شيخ الإسلام الحنفي أحمد بن الخوجة²، وباش مفتي المالكية محمد الشاذلي بن صالح، وهي التي صاغت القانون العقاري أو قانون تسجيل الأراضي لعام 1885م، ثم تلا ذلك أحداث المجلس العقاري المختلط³.

كان الهدف من هذه الإجراءات هو توسيع المحاكم المدنية، إذ أصبح اختصاص المحاكم الشرعية مقتصرًا على الزواج ومتعلقاته والمواريث وأحكام الحجر والترشيد، فهذا التضييق إلى جانب ترك المؤاخذه عما يقتضي الدين والمصلحة المؤاخذه في اقترافه، كجريمة البغاء، وإسناد القصاص في القتل العمد إلى اختيار الحكومة، ورأى فيه العلماء سعياً من الفرنسيين فرض قوانينهم وإبعاد المسلمين عن أحكام دينهم⁴.

ووقع تنظيم المحاكم التونسية بمقتضى أمر 18 مارس 1886م، فتأسست ستة محاكم ابتدائية بتونس في صفاقس وقابس وقفصة والقيروان وسوسة والكاف.

¹ - الحبيب ثامر، المصدر السابق، ص 72.

² - أحمد بن الخوجة: هو الفقيه الحنفي محمد بن أحمد بن خوجه ولد بتونس سنة 1830م، تولى القضاء سنة 1861م، ثم تولى مشيخة الإسلام سنة 1878م، شارك في تأسيس جمعية الأوقاف والمدرسة الصادقية وإصلاح التدريس بجامع الزيتونة، توفي سنة 1896م. ينظر: محمد محفوظ، المرجع السابق، ج 2، ص 244 - 245.

³ - عبد اللطيف الهرماسي، المرجع السابق، ص 142.

⁴ - نفسه.

كما تأسست كذلك محكمة الوزارة بالعاصمة، ومحكمة استئناف وتعقيب ومحكمة جنائية، ففي العاصمة يرجع النظر في القضايا البسيطة إلى دائرة خاصة تسمى الدائرة الصغرى وهي تابعة لإدارة الشؤون العدلية¹.

وفي سنة 1898م تكونت لجنة لإحداث مجلة قوانين وتمت أجزاء هذا المشروع في مراحل، حتى أصبح لتونس مجلة قوانين كاملة تمتاز بسهولة وقلّة تعقيدها، والحقيقة أن النظام القضائي الذي تتمتع به تونس هو نتيجة تمتع تونس بهذا النظام القضائي هو من خلال كفاح عنيف قام به الشعب منذ فرض الحماية مطالباً بالفصل بين السلطات وباستقلال القضاء، والتدخل الفرنسي في الشؤون القضائية في تونس بتعيين مدير العدل ومدير الشؤون العدلية فرنسيين، والذي يتولى القيام بمهمة نيابة الحق العام في جميع المحاكم التونسية هو فرنسي، وكيل تونسي يباشر الأعمال نيابة عنه، وقد وضع هذا النظام بمقتضى أمر صادر في 10 جويلية 1906م².

وفي سنة 1921م أحدثت وزارة العدل التونسية ورغم أن صاحب هذه الخطة كان تونسياً وهو الطاهر خير الدين³، فإن إشراف سلطة الحماية على وزارة العدل لم ينفك بارزا في صورة ما، فالمسؤول عن إدارة المصالح العدلية كان فرنسيا وكانت لديه الوسائل الملائمة لتنفيذ سياسته الاستعمارية وهو بذلك يتابع حسب مزاجه تهديم شخصية العدلية التونسية وفرنتها⁴.

¹ - عبد اللطيف الهرماسي، المرجع السابق، ص 143.

² - الحبيب ثامر، المصدر السابق، ص 73 - 74.

³ - محمد بوزغية، المرجع السابق، ص 158.

⁴ - الطاهر خير الدين: هو ابن خير الدين باشا الذي ولد سنة 1875م بتونس، ارتقى إلى رتبة لواء سنة 1904م ثم وزيرا للعدلية التونسية سنة 1920م، توفي سنة 1937م. ينظر: الموسوعة التونسية المفتوحة، الطاهر خير الدين، www.mawsouaa.tn، 2019/04/17، 10:12 سا.

ومن أهم القضايا التي اهتمت بها السلطة الاستعمارية هي محاكمات الطلبة والتلاميذ في المحاكم الفرنسية:

أ- محاكمات طلبة الجامعة الزيتونة سنة 1936م:

فعلى إثر صدور أمر 9 فيفري 1936م المتعلق بالنظام الجديد للموظفين بالبلاد التونسية تحرك الطلبة وتوجوا تحركاتهم بمظاهرات 22 فيفري، وقد تم إيقاف 33 طالبا أثناء هذه المظاهرة أحيلوا إلى المحكمة الابتدائية بتونس بتهمة الاعتداء بالعنف على أعوان أمن أثناء مباشرتهم لوظيفتهم.

وقد أنكر الطلبة أثناء جلسة المحكمة المنعقدة يوم 27 فيفري التهمة المنسوبة إليهم، ومع ذلك سلطة عليهم الإدارة أحكام قاسية تتلخص في السجن ودفن غرامات مالية¹.

ب- محاكمات التلاميذ سنة 1952م:

انتصبت المحاكم أثناء التحركات الشعبية التي طبقت بداية أزمة الخمسينات لمقاصصة التلاميذ، وقد جرت أهم هذه المحاكمات في مدينتي صفاقس وسوسة، ففي صفاقس تظاهر تلاميذ المعاهد يوم 19 فيفري 1952م أمام مقر قنصلية اليونان وقدموا لنائب القنصل عريضة احتجوا فيها ضد إبعاد القادة السياسيين واستنكروا سياسة القمع التي تسلكها السلطات الفرنسية².

وإثر هذه المظاهرة أحيل يوم 26 فيفري 29 شابا من بينهم 22 تلميذا على المحكمة الجنائية بصفاقس فحكمت هذه الأخيرة على جميع التهم بدفع خطية فردية بقدر 20,000 فرنك وعلى 07 منهم بـ 10 أيام سجنًا وعلى 14 تلميذا آخر 08 أيام، في سوسة تحرك تلاميذ

1 - خميس العرفاوي، القضاء والسياسة في تونس زمن الاستعمار الفرنسي 1881 - 1956، ط1، دار صامد للنشر والتوزيع، تونس، 2005، ص360.

2 - نفسه، ص361.

المعهد الكلاسيكي (الثانوي) يوم 27 أفريل ورفعوا أثناء المظاهرة شعارات "يحيا بورقيبة ويسقط باي"¹ كما حطموا النوافذ والأبواب، ووقف 31 منهم أمام المحكمة الجنائية بسوسة يوم 9 ماي من أجل جنحتين:

أولاً: شتم شخصية في مرتبة وزير ورفع شعارات ثورية.

ثانياً: إتلاف تجهيزات ذات استعمال عمومي².

وقد صدرت أوامر العفو بمناسبة عيد الأضحى في 30 جويلية سنة 1955م وأسعفت المستفيدين سواء بإسقاط باقي العقوبات أو الحط منها جزئياً، وأفرج عنهم في 8 ديسمبر سنة 1955م³.

5- التقرب من شيوخ الطرق الصوفية:

لقد عملت السلطة الاستعمارية في البلاد التونسية على انتهاج سياسة استعمارية لتتقرب بها لرجال الطرق الصوفية وتشديد الخناق عليهم، اعتقاداً منها أنها مصدر الخطر فأخذت تتقرب منهم من أجل استغلالهم وتوظيفهم لخدمة مصالحها وذلك لمكانة مشائخها بين الأتباع لنفوذهم الروحي عليهم، منتهجة بذلك على ثنائية هامة وهي سياسة الإغراء والاحتواء وسياسة خنق الحصار عليهم، بهدف تحييد هذه المؤسسات وتوظيفهم واكتساب صداقتها ومقاومة الوعي الوطني الذي أصبح يهدد كيانها في البلاد التونسية⁴:

¹ - هو لوسيان باي مدير التعليم العمومي.

² - خميس العرفاوي، المرجع السابق، ص 361.

³ - نفسه، ص ص 515 - 516.

⁴ - قارة فاطمة، المرجع السابق، ص 49.

أ- سياسة الإغراء والاحتواء:

1- الإعفاءات:

كالإعفاء من الخدمة العسكرية طبقاً للأمر المؤرخ في 24 جانفي 1893م و 20 جويلية 1896م، كما وقع إعفاء بعض مشايخ الطرق الصوفية من بعض الأداءات الدولية. كإعفاء سيد قدور شيخ الزاوية القادرية بالكاف وإعانة الزاوية التجانية بتماسين- الجزائر- بمبلغ 3000 فرنكاً تعويضاً لها على القانون الذي تدفعه على نخيلها بالجنوب التونسي¹.

2- التسهيلات:

وتتمثل في التكتّم على مخلفات مشايخ الطرق وعدم فضح محاكمتهم عدلياً مثلاً التدخل لدى محكمة سوسة لإيقاف تتبع الحفناوي ابن عبد الحفيظ - شيخ الرحمانية- المتهم بقضية تهريب الأسلحة، وكذلك تدخل حاكم التحقيق بقفصة لصالح محمد الكبير وذلك بتسديد ديونهم وقرضهم المال من أجل احتوائهم والوقوف إلى جانب السلطة الاستعمارية².

3- التوظيف:

لقد منحت السلطة الاستعمارية لمشايخ الطرق الصوفية مناصب لتوظيفهم مثلاً الشيخ الأزهاري بن مصطفى بن عزوز - شيخ الطريقة الرحمانية- فقد وقع تكليفه بالاتصال بالشيخ الحفناوي للعمل على افنكاك بقايا المركب الفرنسي الذي غرق بمقربة من طبرقه من سكان جبل خمير³، لقد تمكنت السلطة الاستعمارية بفضل توظيفها لبعض مشايخ الطرق الصوفية من تحقيق عدة أهداف بأقل التكاليف وفي مدة وجيزة، كما وفرت الأمن والاستقرار في أشد

¹ - لطيفة الأخضرى الغول، الإسلام الطريقي والتحوّلات السياسية والاجتماعية بتونس في العهد الاستعماري 1881 - 1934، (رسالة لنيل شهادة الدكتوراه)، إشراف علي بن حسن المحجوبي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة التونسية، تونس، 1990م، ص123.

² - نفسه، ص124.

³ - التليلي العجيلي، المرجع السابق، ص93.

الفترات حرجا في أماكن حدودية نائية من الصعب السيطرة على قبائلها وحملها على الانقياد والطاعة¹.

كذلك انتهجت السلطة الاستعمارية سياسة تفكير مشائخ الطرق الصوفية، ففي نفس الوقت الذي كانت فيه بعض الطرق الصوفية تبذل كل ما في وسعها لكسب رضا السلطة الاستعمارية بالسير في ركابها والتفاني في خدمة مصالحها، كانت تلك السلطة تزيد من تضيق الخناق على الطرق وإضعافها تدريجيا، ليس بمراقبة مشائخها وتوظيفهم فحسب بل بضرب المقومات المادية لتلك الطرق باعتبار أن المال هو أحد الركائز الأساسية التي يتوقف عليها وجودها، فقد كان تفكير الطرق خيارا مبدئيا راهنت عليه السياسة الاستعمارية على تحقيقه، سعيا منها لوضع حد لقوة بعض الطرق والخاصة المادية وسط واقع يحمل في طياته الكثير من المفاجآت مما قد يؤدي إلى توظيف تلك القوة ضد المصالح الاستعمارية ووقاية لها من كل الاحتمالات وغيرها².

ب: سياسة الحصار وإضعاف نفوذها:

عملت السلطة الاستعمارية على ضرب مصادر موارد الطرق المتمثلة في:

1- منع الزيارات:

حيث تعتبر موردا هاما من موارد الطرق الصوفية، فعملت السلطة الاستعمارية على حرمانها منه بدعوى أنه يتسبب في تفكير السكان مما يجعلهم عاجزين عن دفع الضرائب³. فبادرت الإدارة الاستعمارية في المرحلة الأولى إلى تحجير الإعلان عن تلك الزيارات في الأسواق بمقتضى الأمر العالي المؤرخ في 20 جوان 1911م، لكن برغم ذلك التحجير وعدم السماح بالتنقل إلا بعد التعهد بعدم جمع الزيارات حاول بعض المشائخ الاستمرار بجمعها أو على الأقل بعضها بطرق ملتوية مما أوجب على تلك السلطة فرض عقوبات

¹ - لطيفة الاخضري، المرجع السابق، ص124.

² - التليبي العجيلي، المرجع السابق، ص 93 - 99.

³ - لطيفة الأخضري الغول، المرجع السابق، ص124.

على مرتكبي تلك التجاوزات، فخطت الإدارة الاستعمارية خطوة ثانية تمثلت في منع الزيارات نفسها من سنة 1913م مما ألحق أضراراً بالمقومات الاقتصادية للطرق ومشائخها، كما راقبت تنقلات المشائخ ولم تسمح للبعض منهم بالتنقل إلا بعد التزامهم بعدم جمع الزيارات، وبذلك أحكمت السلطة الاستعمارية مراقبة جمع المال من الزيارات خاصة بعد أن توجهت السياسة الاستعمارية لضرب المورد الثاني¹.

2- ضرب الأقباس:

منها الأقباس العامة التي كانت تعتبر من المداخل الهامة للطرق حيث عملت السلطة الاستعمارية على الاستحواذ على أكثر ما يمكن من ذلك النوع من الأراضي وبتلك الطرق الملتوية أمكن للسلطة الاستعمارية انتزاع مساحات شاسعة على حساب الأقباس².

تلك هي أهم ملامح السياسة الاستعمارية تجاه الطرق الصوفية، من حيث انتزاع الأراضي الأقباس، وإضعاف مشائخها مادياً لتسهيل السيطرة عليهم والتحكم فيهم، الأمر الذي أدى إلى تدهور مداخلها الذي حملهم على التداين، كما أدت ببعض الآخر من الشيوخ إلى رهن عقاراتهم ريثما يتم دفع ما عليهم من ديون³.

ومن الوسائل التجهيل الهامة التي استعملتها الاستعمار مواصلة تشجيع الشعوذة والسحر عن طريق الطرق الصوفية (العيساوية وغيرها)، كما كان سائد في تونس، وهكذا قد شكلت السياسة الاستعمارية حاجزاً أمام نهوض الشعب التونسي ثقافياً⁴.

1 - التليلي العجيلي، المرجع السابق، ص 105.

2 - لطيفة الأخضر الغول، المرجع السابق، ص 127.

3 - التليلي العجيلي، المرجع السابق، ص 105 - 106.

4 - حمّة الهمامي، المجتمع التونسي (دراسة اقتصادية اجتماعية)، ط1، دار صامد للنشر والتوزيع، صفاقس- تونس، 1989م، ص 42.

ثانياً: السياسة الثقافية الفرنسية في تونس 1881-1956م:

لقد تعدد السياسة التي انتهجتها الإدارة الفرنسية في تونس منذ فرض الحماية سنة 1881م سياستها الثقافية، التي كان الغرض منها هو فرنسة البلاد التونسية ومحو كل مقوماتها الإسلامية والهوية الوطنية معتمدة في ذلك على العديد من الوسائل لإخراجهم من إسلامهم وإبعادهم عليه بكل الطرق فكانت سياستها كالتالي:

عمدت الإدارة الاستعمارية بعد انتصاب الحماية على تونس إلى دراسة نوعية التعليم الموجود في البلاد التونسية فتفطنت إلى ازدواجية التعليم فقصد بذلك التعلم التقليدي والتعليم العصري، فقامت بتهميش الأول وإقصائه نظراً لما يمثله من خطر عليها وعملت على احتواء النوع الثاني وجعلته يخدم أهدافها وطموحاتها، كما قامت بتنظيم التعليم المسيحي الفرنسي¹.

1- تهميش التعليم التقليدي:

من الوسائل التي انتهجتها الإدارة الفرنسية في تونس هي محاربة التعليم الديني الإسلامي الذي يلحق في الكتاتيب وجامع الزيتونة لأنه يمثل خطراً كبيراً وعقبة أمام نشر المسيحية بتونس، فعمل رجال الكنيسة بطرق مختلفة على إبطال مردود هذا النوع من التعليم وتنفير المواطنين التونسيين منه وإبعادهم عن الجوامع ويتضح هذا في تصريح الراهبة ماري "Marie" عندما قالت: "إن التعليم في جامع الزيتونة عبارة على مدرسة لاهوتية في العصور المظلمة بأوروبا"².

فهم أرادوا ضرب التعليم في جامع الزيتونة فاعتبروا أن منهجيته ومحتواه لا يتماشى ومستلزمات العصر الراهن، كما عملوا على سد الطريق أمام السكان حتى لا يتصلوا بالفقهاء، وحفظه القرآن، وغايتهم من ذلك هو تهجير المسلمين من هذه المؤسسة و توجيههم

¹ -الهادي جلاب ، المرجع السابق، ص61.

² -ريم غانمي، المرجع السابق، ص52.

إلى مدارسهم المسيحية، يتضح أن جامع الزيتونة وغيره من المؤسسات الدينية العلمية كانت مستهدفة من قبل هؤلاء المسيحيين.

إذ كيف لهم أن يحققوا أهدافهم والكتاتيب والمساجد مفتوحة للأطفال والتلاميذ، أنهم لا يصلون إلى شيء ما دام هؤلاء الصغار ما زالوا يحفظون القرآن ويتعلمون معانيه ومبادئ القيم الإسلامية كيف سترسخ العقيدة المسيحية في أذهانهم وهم يتلقون منابع العقيدة الإسلامية؟ لذلك فكروا في القضاء على أصول هذه العقيدة بالقضاء على الأماكن التي يتعلمون فيها هذه الأصول؟¹

2- احتواء التعليم العصري:

منذ انتصاب الحماية بتونس سارعت الحكومة الفرنسية إلى احتواء هذا النوع من التعليم فجعلته يخدم مصالحها وأغراضها التوسعية إذ قامت باتخاذ جملة من الإجراءات قصدت من ورائها استقراغ هذا النوع من التعليم من كل محتوى إصلاحى ونهضوي، فكان في تونس وقت الحماية الفرنسية حوالي 12 تونسيا من بعوث الكلية الصادقية يحضرون مهتهم الحرة في سان لوي في باريس، وكان يوجد في تونس حوالي 20 مدرسة (إيطالية وفرنسية) تبشيرية تدرس من شاء أن يتلقى العلم من التونسيين حسب المناهج الغربية².

وهكذا كان ينشط التعليم في كل فروع الفعالية الفكرية باتجاه وطني يتممه الاتجاه الأوربي، فظل نظام الحماية وجاءت معاهدة المرسى³ سنة 1883م فحطمت هذه النهضة

¹ - ريم غانمي، المرجع السابق، ص 60.

² - راغب السرجاني، قصة وتاريخ تونس من البداية إلى ثورة 2011م، ط1، دار الأقالم للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م، ص 29.

³ - معاهدة المرسى: عقدت هذه الاتفاقية يوم 8 جوان 1883م بين الباي وفرنسا، فبمقتضى هذه الاتفاقية بسطت فرنسا نفوذها الفعلي على البلاد التونسية، بعد أن جعلت معاهدة باردو فرنسا تسيطر على شؤون الإيالة الخارجية فحسب، فان =معاهدة المرسى مكنتها من التدخل في شؤونها الداخلية مع الإبقاء على سلطة الباي. ينظر: علي محجوبي، انتصاب الحماية الفرنسية بتونس، تعريب، عمر بن ضو، دار سراس للنشر، تونس، 1986م، ص 89.

العظيمة فقد تركت المادة الأولى منها للحكومة الفرنسية والمالية العامة التوجه المعنوي لشعبها، ومنذ الساعة الأولى للحكومة الجديدة وجدت نفسها أمام مشكلة اعتبرتها حادة فلقد واجهت تنظيماً كاملاً للتعليم أخذاً بالتكامل فهل تترك للتونسيين لغتهم وثقافتهم الوطني أو أنها على عكس ذلك تعتمد إلى تعليمهم اللغة الفرنسية؟

لأن اللغة العربية من طبيعتها تحفظ وتتمي في الشعب التونسي مفهوم الشخصية، فكانت الحكومة الفرنسية تفكر بالتعايش أو المعاملة بالمثل بين اللغتين لأن العربية بلا شك تحل محل اللغة الفرنسية¹، كما نصح وحذر أحد المؤرخين الفرنسيين من إقصاء اللغة العربية بتعويضها قهراً باللغة الفرنسية، ونصح بسلوك سياسة حكيمة، حتى لا تفشل جهود ومساعي الساعين في هذا المجال².

وهكذا أصيب التعليم في تونس منذ سنة 1881م باضطهاد حكومي لا يرحم فقد عمدت الإدارة الفرنسية إلى ضرب المؤسسات القائمة بدل المساعدة على تطويرها، فحين لم تستطع إلغاءها من أصلها، فقد استحال عليها نظراً لمقاومة التونسيين الذين أحسوا أن مجتمعهم وحضارتهم في خطر³.

كما قامت الإدارة الفرنسية بإلغاء الإرساليات العلمية التي كان يمنحها المعهد لصالح التلاميذ الصادقيين كي يواصلوا دراستهم بمعاهد فرنسا، كما أنها ألغت اللغات الأجنبية وقد اتخذت فرنسا هذا الإجراء خشية اطلاق هؤلاء الشباب على مبادئ الثورة الفرنسية، كما قام المقيم العام بول كامبون "Paul cambon" على عزل هذه المدرسة من تيار الثقافة العربية الإسلامية وإلحاقها بالتعليم الفرنسي، وجعل اللغة الفرنسية هي اللغة التي تدرس بها سائر

¹ - عبد العزيز الثعالبي، المصدر السابق، ص 57-58.

² - شاوش حباسي، "فرض الحماية الفرنسية على تونس"، مجلة الدراسات التاريخية، الجزائر، العدد 8، 1994م، ص 101.

³ - راغب السرجاني، المرجع السابق، ص 29.

المواد تطبيقاً لما قاله الكاردينال دي لافيغري الذي زار المدرسة "إن العنصر التونسي أهل لتلقي الثقافة الأوروبية" ولم تحترم الحكومة الإدارة مؤسس هذه الكلية¹.

ولم تلغ برامجها لكنها بدلت بلعبة ماكرة وذلك حين تقدمت الندوة الاستشارية برغبة في جانفي سنة 1901م -لم يكن التونسيون ممثلين في الندوة- فكانت الإدارة تدعو إلى أن تجعل للتعليم في المدارس التونسية طابعا حرفيا وزراعيا وهكذا ضرب نظام الصادقية بكامله وانحط مستوى الدراسة فيها وانخفض عدد الطلاب الذي بلغ 150 بين داخلي وخارجي في بدايتها إلى 75 طالبا سنة 1907م، فتحول التعليم فيها عن غايته التي كانت تهدف إلى إعداد نخبة فكرية متحررة².

وغدت آلة تشوه عقل الشباب التونسي فتخرج فقط المترجمين السيئين لجهاز البوليس أو الوظائف الدنيا في الإدارة، ثم تحول التعليم العربي من يد التونسيين إلى يد الأساتذة الفرنسيين وامتدت اليد إلى أموالها فاشترت الحكومة بها 6مدارس من المفروض أن تشتري وتبني من خزينتها، فأصبحت اللغة بالإهمال فمن حصيلة ستة 6سنوات يقضيها التلميذ بالمعهد لا يقضى إلا 4سنوات في مزاوله لغته العربية والسبب في ذلك قلة المشايخ الذين يدرسون هذه اللغة والذين ما فتئت إدارة المعارف تقلل من أعدادهم، فقد تضاعل عددهم من 7مدرسين عام 1910م إلى 3مدرسين عام 1919م³.

فلم تقدم الدولة أي مساعدة أو حتى درهما واحد للتعليم العربي قال إلى الاعتماد على موارده الخاصة، مما كانت تدفعه الجمعيات الخيرية وما يقدمه أولياء الطلاب فوصل إلى درجة من البؤس يكفي أن نذكر أن راتب أستاذ الجامعة من الدرجة الأولى هو 200فرنكا، بينما يتقاضى الأستاذ في الأقاليم الأخرى في البلاد التونسية 9,30فرنكا فقط، وما تراجع

¹ - عبد العزيز الثعالبي، المصدر السابق، ص 75.

² - الحبيب ثامر، المصدر السابق، ص 82.

³ - نفسه، ص 84.

الحكومة عن موقفها إلا بعد معركة جد عنيفة خاضتها العناصر التونسية المثقفة وأدت سنة 1896م إلى السماح لمجموعة من الشباب التونسي بتأسيس مدرسة ابتدائية عربية-فرنسية وهي الخلدونية معتمدة في تمويلها على كرم الشعب وتبرعه¹.

فكان الهدف منها هو تعليم شباب الجامعة مبادئ الجغرافيا والتاريخ والاقتصاد السياسي والرياضيات والفيزياء والعلوم الطبيعية وقد توصلت هذه المؤسسة بعد سنوات قليلة من إنشائها إلى أن تعد 160 تلميذا مستمعا وبلغ عدد مجلدات مكتبتها 1200 وعدد قرائها 500 ولم تتمكن هذه الجمعية من غايتها في إيجاد البحوث العلمية فاكتفت بأن قدمت بعض المساعدات لبعض الطلاب كي ينتهوا من دراستهم الثانوية، لكنها آلت إلى سقوط سريع ككل مؤسسة تواجه ضغط الحكومة وثقل سياستها².

فقد عارضت الإدارة الفرنسية بكل قواها القيام بأي إصلاح للثقافة التونسية -جامعة تونس العربية، فقد تقدم الطلاب الراغبون بإصلاح المناهج بعرائض، لكن الإدارة الفرنسية استقبلتهم باحتقار من قبل الحكومة واعترضوا بشدة سنة 1911م ضد التمييز الحكومي ودفعهم لذلك ضعف الخلدونية كما أعلنوا مع أساتذتهم الإضراب حتى الحصول على الإصلاح الجذري الضروري، ودامت هذه الحركة شهرا، لكنها قمعت بالسجن والعنف البوليسي فقد سجن من الطلاب 15 وطرد كثيرون من دراستهم وحرموا من التقدم للمسابقات الوظيفية، فقد حكمت الحكومة أن مثل هذه المطالب تهدد أمن الدولة ومصالحها³.

كما عمدت على عدم انتشار التعليم فحددت الإدارة الفرنسية عدد المدارس بكيفية لا تتناسب مع عدد الأطفال البالغين سن التعليم حتى بلغ عدد التلميذ الملحقين بالمدارس بنسبة 10% فقط من مجموع الأطفال التونسيين الذين بلغوا سن التعليم.

¹ - الحبيب ثامر، المصدر السابق، ص 84.

² - عبد العزيز الثعالبي، المصدر السابق، ص 59.

³ - نفسه.

فوقفت في سبيل نشر الثقافة العربية وفرضت على الناشئة التونسية برامج فرنسية والتي يقصد منها قتل روح القومية في الشباب التونسي وإضعاف مقوماته الوطنية من لغة ودين وتاريخ¹.

وعندما حاولت حكومة الحماية أن تفرض أو تطبق سياسة فرنسة التونسيين بتعليمهم الفرنسية وكأنها لغتهم القومية باعتراضات وصعوبات كثيرة، فقامت الإدارة الفرنسية باتباع سياسة التذويب القومي معارضة الاستعمار للامتيازات والثروة، لكن فكرة التذويب فشلت مرضاة لشهوات الاستعمار المادية².

3- إنشاء مدارس فرنسية:

لقد اتجهت الإدارة الفرنسية منذ فرض الحماية إلى محو الروح القومية وذلك من خلال محاربة اللغة العربية واستبدالها باللغة الفرنسية بتطبيق برامج لإخراج الناشئة عن قوميتها العربية لكي تتمكن من إدماجها في العنصر الفرنسي وذلك من خلال تكوين مدارس فرنسية خالصة من بينها³.

أ- إدارة العلوم والمعارف:

فتم تأسيسها سنة 1883م للتعليم العام وعين على رأسها لوي ماشوال " Louis Machuell"⁴ الذي اشتغل مديرا عاما للتعليم التونسي سنة 1882-1908م الذي يعتبر إحدى الشخصيات الهامة ضمن رجالات الحكومة التونسية في بداية عهد الحماية الفرنسية

¹ - يوسف درمونة، تونس بين الاتجاهات، دار الكتاب، مصر، 1953م، ص73.

² - عبد العزيز الثعالبي، المصدر السابق، ص61.

³ - ريم غانمي، المرجع السابق، ص54.

⁴ - لوي ماشوال: هو مستعرب فرنسي ولد بالجزائر سنة 1843م وتمكن بفضل بيئته أن يتلقى تعليما مزدوجا أوروبيا إسلاميا وان يتكلم العربية بطلاقة وقد ادخل على التعليم نظم حديثة. ينظر: ريشارد ماكن، "لوي ماشوال والإصلاح التربوي بتونس خلال السنوات الأولى للحماية الفرنسية"، المجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد3، 1975م، ص63.

يتمتع ماشوال بنشاط كبير وبعد نظر، وقد تمكن خلال فترة زمنية قصيرة أن يغير التعليم بتونس تغييرا عميقا¹.

يعد ماشوال محظوظا ذلك أن الوضعية العامة بتونس في بداية عهد الحماية كانت مشجعة على نشر أفكار جديدة، هذا بالإضافة إلى الوضعية السياسية في فرنسا التي جعلت الوزير المقيم بول كامبون "Poul Cambon" يشجع على إدخال نظام تربوي حديث للتونسيين، وكان الهدف منه خلق جيل يعمل على تدعيم الحماية ومحاربة من كان ضد فرنسا فضلا عن تعزيز ومد الإدارة المركزية برجال أكفاء وهكذا أنشئت إدارة العلوم والمعارف، التي اعتمد فيها ماشوال على تشجيع واعتماد الوسائل لتطبيق التعليم العصري للتونسيين هو إنشاء معاهد فرنسية-عربية، كما شجع أيضا على اختلاط الأطفال ذوي الجنسيات والأديان المختلفة بالمعاهد لاعتقاده أن ذلك يؤدي حتما إلى تشجيع التقارب بين المجموعات المختلفة المقيمة في تونس².

ب-المعهد العلوي:

انشأ ماشوال هذا المعهد بتونس سنة 1884م وقد جلب له مجموعة مختلطة من التلاميذ الأوروبيين والمسلمين واليهود³، لتخريج المعلمين الذين يتناسب تكوينهم وما تهدف إليه السلطة الاستعمارية، وكانت برامجها كلها تدرس باللغة الفرنسية وتنتهي الدراسة به إما الحصول على الشهادة الابتدائية أو بمواصلة التعليم في شعبي التجارة أو الفلاحة، وكانت رغبة المشرفين على المعهد هي تمكن المسلمين و الأوروبيين من تعليم فرنسي متين لذلك

1 - ريم غانمي، المرجع السابق، ص54.

2 - ريشارد ماكن، المصدر السابق، ص63.

3 - نفسه، ص64.

"لم يول المعهد العلوي عناية مخصصة بمادة الترجمة كما هو الشأن في المعهد الصادقي في مرحلته الثانية"¹.

ج-التعليم المسيحي التونسي:

لقد كان التعليم المسيحي الفرنسي متمركزاً من قبل في البلاد التونسية لكنه أكثر بعد انتصاب الحماية حيث وقع إنشاء المدارس المسيحية في مختلف المناطق لأن التعليم في نظرهم كما يقول المشير هنري جيب "إنما هو واسطة إلى غاية فقط هذه الغاية هي عبادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفراداً مسيحيين وشعباً مسيحية"².

وقد ذكر لويس ماشوال "Louis Machuell" بأنه توجد بالبلاد التونسية سنة 1883م 24 مدرسة ومعهداً وأن عشرين منها يشرف عليها رجال الدين المسيحيون أما الأربعة الباقية فهي المعهد الصادقي، وثلاث مدارس إسرائيلية عهد بالتدريس فيها إلى معلمين وأساتذة علمانيين فإن السلطة الاستعمارية تمكن رجال الكنيسة من تأسيس مدارس مسيحية وهو ما أطلق عليها بالمدارس الفرنسية الحرة³.

- طرق التدريس:

إن التعليم ومحتواه في هذه المدارس سيكون بالطبع تابعا لطموحات وأهداف المسؤولين عنه، إذ ارتبطت البرامج المطبقة فيها بالإيديولوجية الثقافية التي يريد رجال الكنيسة ترسيخها للأطفال، وهي برامج تهدف إلى تكوين أجيال مسيحية متفرنسة، لذلك كانت هذه البرامج خالية من كل روح وطنية بعيدة كل البعد عن المحيط الذي يعيش فيه التلميذ حتى تجعله مقطوع الصلة بماضيه وتاريخه وتراثه.

¹ - الطاهر المناعي، المرجع السابق، ص 87.

² - ريم غانمي، المرجع السابق، ص 54.

³ - نصر بن علي الشريقي، *النظم التربوية في عهد الحماية*، (رسالة لنيل شهادة الدكتوراه)، اشراف محي الدين رشاد، جامع الزيتونة، تونس، 1989م، ص ص 205-206.

فقد جاءت المواد المتعلقة بماضي الأمة وتاريخها ومواطن حضارتها كمواد تاريخ وجغرافية فرنسا أما تاريخ وجغرافية تونس تتم دراستها ضمن شمال إفريقيا¹.

كانت اللغة المعتمدة في هذه المدارس هي اللغة الفرنسية، فهي اللغة المسيطرة من حيث كونها لغة تبليغ ولغة المواد العلمية، أرادت الحكومة الفرنسية من خلال تعليمها اللغة الفرنسية احتواء الشعب التونسي ثقافيا، وهذا ما ذهب إليه جول فيري "Jules Ferry"² في قوله: "إن أرادت فرنسا لنفسها كلمة مسمومة وتأثيرا حيا في مصير الدولة الأوروبية الأخرى فما عليها إلا أن تنتشر لغتها"³.

أما المعلم فإنه يحظى بدور فعال في العملية التربوية فهو المسؤول الأول عن تطبيق البرامج المقررة وتقنينها للناشئة وتوجيهها بما يتفق والسياسية التعليمية التي تريد أي دولة تثبيتها، وإذا علمنا أن الذين كانوا يدرسون في تلك المدارس من رجال الكنسية هم في الأصل رهبان وراهبات ذوي تعليم ديني مسيحي بالأساس مكتسبين ثقافة دينية متينة تمكنهم من السيطرة على هؤلاء الأطفال وتوجيههم كما يريدون هم، ذلك أن أكثر شيء يعلمونه للتلاميذ هي العقائد والأصول التي تقوم عليها ديانتهم، خاصة أن المدارس التي وقع تشييدها توجد بجانبها كنائس تقوم فيها الصلاة وذكر الأناشيد الدينية كل يوم من أجل التأثير على الأطفال غير المسيحيين بطريقة غير مباشرة⁴.

4- سياسة التجنيس:

لقد اتجهت الإدارة الفرنسية في سياستها نحو فرنسا البلاد التونسية وذلك من أجل تحقيق تفوق المنصر الفرنسي فيها، فلم تقتصر فقط على تشجيع هجرة الفرنسيين إلى تونس

¹ - ريم غانمي، الرجوع السابق، ص ص 67-68.

² - جول فيري: رئيس وزراء فرنسا منذ سنة 1880م، كان من المتحمسين لاحتلال تونس حيث رسم الخطة في أواسط شهر مارس 1881م استعداد للزحف على تونس. ينظر: نفسه، ص 69.

³ - نصر بن علي الشريقي، المرجع السابق، ص 206.

⁴ - نفسه.

بفتح أبواب الوظائف التونسية في وجوههم، ومنحتهم مرتبات ضخمة من الميزانية التونسية والمنح المتعددة وقطاعات من الأراضي التي انتزعتها من أصحاب البلاد¹.

وإضافة على ذلك تسهيل على الأجانب وحتى التونسيين أنفسهم الحصول على الجنسية الفرنسية، فلم تحترم في تنفيذ خطتها على قوانين الدولة الخاصة بالجنسية ولا السيادة التونسية التي اعترفت بها في المعاهدات بل سارت في تنفيذ هذا البرنامج على مراحل متعددة، فأصدرت مختلف القوانين الفرنسية من جهة وأجبرت باي تونس من جهة أخرى على إصدار أوامر لتحقيق نفس الغرض، فعملت فرنسا على جعل الجنسية التونسية مستحيلا بينما سهلت أسباب الخروج منها².

أ- من أهم قوانين التجنيس:

- قانون 29 جويلية 1878م: الذي أعطى تسهيلات كبيرة للتونسيين الذين يرغبون في كسب الجنسية الفرنسية، كما أنه قرر أن "الأرض التونسية" هي "أرض فرنسية".

- قانون 26 جوان 1889م: الذي يقضي بأن الفرنسية التي تتزوج أجنبيا لا تتبع جنسية زوجها إلا إذا كانت قوانين الدولة التي ينتمي إليها زوجها تسحب عليها جنسيته أما إذا كانت هذه القوانين لا تخولها ذلك فإنها جنسيتها الأصلية تبقى وهكذا فإن الفرنسية التي تتزوج تونسيا تبقى فرنسية.

- قانون أكتوبر 1910م: جاء بتسهيلات للتونسيين إذ نص بسحب الجنسية الفرنسية على أبناء المجنسين التونسيين وكان لهم الحق في اختيار بين الجنسيتين، بينما بقي أبناء الأجانب يتمتعون بهذا الحق³.

¹ - محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، ط3، تعريب محمد الشاوش، دار

سراس لنشر، د. ب. ن، د. س. ن، ص 119.

² - الحبيب ثامر، المصدر السابق، ص 80.

³ - نفسه.

وأصدق مثال على ذلك هو اعتداء فرنسا على حقوق الجنسية التونسية ما جاء في التشريع الذي أصدرته في 8 نوفمبر 1921م الذي يقضي بإخراج الأجانب الذين ولد أجدادهم بتونس من الجنسية التونسية وإحاقهم بالجنسية الفرنسية¹.

فيعتبر الأمر المؤرخ في 8 نوفمبر 1921م وهو آخر تشريع صدر في شأن الجنسية التونسية، حيث نرى أن الدولة التونسية تتمتع بحق فرض جنسيتها على الأجانب إذا توفرت فيهم شروط معينة، ولكن هذا الأمر أصبح غير معمول به إذ بمجرد أن يصبح الأجنبي تونسيا تفرض عليه الجنسية الفرنسية، والغرض من هذا التشريع هو فرنسة الجاليات الأجنبية المقيمة بتونس².

إن مشروع التجنيس في تونس يرد إلى إميل مورينو "Emile Moreno"³، هو الذي مثل دورا مهما خلال العشرينات وبداية الثلاثينات من هذا القرن وذلك بإصداره عدة مراسيم تقنن وتنظم باسمه مادة التجنيس، ففي قانون مورينو باكتساب الجنسية الفرنسية والموافق عليه من مجلس النواب يوم 12 جويلية 1923م والشيوخ يوم 20 ديسمبر 1923م الذي شجع على التجنيس والتتصير معا من أجل تكوين مجموعة مهمة من الفرنسيين ذوي الأصل الأوربي⁴.

حيث نشرت جريدة "إفريقيا الفرنسية" في يوليو 1927م مقالا توضح من خلاله سبب إصدار قانون التجنيس وما هو غرض فرنسا من إصداره على التونسيين، فجاء في المقال ما

¹ - محمد الهادي الشريف، المرجع السابق، ص 119.

² - الحبيب ثامر، المصدر السابق، ص 81.

³ - هو نائب قسنطينة خلال العشرينات ومن بين الذين كان لهم إسهام كبير في صياغة وإصدار اغلب المراسيم التي نظمت مشروع التجنيس وحددت شروطه ينظر: أحمد مالكي، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، 1993م، ص 185.

⁴ - نفسه.

يلي "يعد تجنيس غير الفرنسيين ضرورة مطلقة بغرض تحقيق نوع من المساواة إزاء الإيطاليين، أو قصد إسعاف مجموعتنا الوطنية بأن تقوم بدورها التمديني"¹.

نستنتج من هذه العبارة أن التجنيس لم يكن أكثر من أداة واضحة لاستمالة جميع الطوائف المتواجدة في تونس لصالح فرنسا، حتى يسهل عليها تطبيق كل سياساتها التي ترمي إلى تحقيقها في تونس، لتتجنب من خلالها المساس بهوية التونسيين ومعنوياتهم. وكإصرار من الإدارة الفرنسية على اعتماد التجنيس أداة أساسية لتطبيق جزء من سياستها التي تسعى من خلالها لإنجاح خطتها الإستراتيجية بالمغرب العربي، قام بتأسيس أجهزة لرعاية مصالح المجنسين التونسيين وصيانة حقوقهم، ومن ذلك "عصبة المسلمين الفرنسيين"²، مستغلة في ذلك الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للشعب التونسي خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، فعملت على تجنيس التونسيين بصورة جماعية بدل من تجنيس الجالية الأوروبية³.

ب- الفئات الاجتماعية المتجنسة:

1- حسب الوظائف:

تعتبر الطبقة البرجوازية المتعلمة باللغة الفرنسية من أكثر الفئات المتجنسة بالجنسية الفرنسية، إضافة الفئات التي كانت تربطها مصالحها مع الإدارة الفرنسية، وأصحاب

¹ - أحمد مالكي، المرجع السابق، ص184.

² - هي عبارة عن جهاز استحدثته فرنسا من أجل تسيير مشروعها الذي ترمي من خلاله تجنيس التونسيين والقضاء على هويتهم العربية الإسلامية، كما جاء بهدف صيانة حقوق المتجنسين الجدد وتسعى هذه العصبة لتحقيق جملة من الأهداف منها تحقيق التضامن وثيق الصلة بين المسلمين من ذوي الجنسية الفرنسية وتنمية حب الوطن بين أعضاء العصبة. ينظر: نفسه، ص186.

³ - علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، عبد السلام جاسوس، القاهرة، 1948م، ص50.

الوظائف الهامة في الإدارة الفرنسية والشرطة، والجيش، عمال البريد، ورجال الدرك، المتقاعدين، الفلاحين، الحرفيين أصحاب المقاهي¹.

وكأبرز نموذج على ذلك أخذنا ولاية سوسة كعينة من الولايات التونسية في مطلع سنة 1934م، فالذين تنسوا بالجنسية الفرنسية ينحدرون من الفئات الاجتماعية التالية:

2 أصحاب مهن حرة، 10 إسكافيين، 17 صحافي، 11 حرفيين، 5 نجارين، 24 فلاح، 4 فرق عمل، 18 متقاعدا في الجيش، 7 دركيين، 3 عمال بريد، 1 جندي، 2 من عناصر الشرطة، 9 عمال في القطاع العام².

إن المتجنسين لم يكتفوا بكسب الجنسية فقط، بل غيروا أسماءهم العربية الإسلامية إلى أسماء فرنسية مسيحية، لأهداف معينة، ومن هؤلاء مثلا نذكر حميدة بن محمد بن سليمان بن علي الحفناوي الذي أصبح اسمه سليمان أميدي وذلك بموجب قراري وزارتي³.

2- حسب الفئات العمرية والجنسية:

لم يتقصر التجنيس على الفئات البالغة فقط، بل شمل مختلف الفئات العمرية الأخرى، حيث بلغ عدد القصر المتجنسين على النحو التالي خلال فترة السنين الثلاث:

جدول يوضح عدد الفئات المتجنسة من الفترة (1912-1923).

السنوات	1912	1922	1923	المجموع
عدد الفئات	10	17	21	48

كما مست حالة التجنيس النساء أيضا، حيث تجنست حوالي 15 امرأة تونسية من مجموع 118 امرأة من الجاليات الأوروبية واليهودية في تونس خلال سنة 1922م، طبقا

¹ - علال الفاسي، المصدر السابق، ص 50.

² - محمد بوطيبي، التجنيس في تونس بين القبول والمعارضة خلال فترة الحماية الفرنسية 1881-1956، مجلة أبعاد، جامعة وهران 2، العدد 7، 31 ديسمبر 2018م، ص 220.

³ - علي الزيدي، الزيتونيون دورهم في الحركة الوطنية التونسية 1904-1945، ط1، مطبعة دار نهى، تونس، 2007م، ص 353.

للمرسوم 3 أكتوبر 1910م، الذي يسمح للنساء المتزوجات واللائي ينحدرن من آباء مجنسين لهم حق اكتساب الجنسية الفرنسية¹.

ومن بين الأهداف التي تهدف إليها سياسة التجنيس الفرنسية هي: اعتناق جنسية دولة من الدول الأجنبية التي تدين بالمسيحية وتعمل بالقوانين الوضعية، فيصبح فردا من أفرادها.

ويلتزم بالانسلاخ عن الأحكام الشريعة الإسلامية والعمل بمقتضاها في المقابل يلتزم بالعمل بقوانين تلك الدولة التي تجنس بجنسيتها سواء في أحواله الشخصية أو في المعاملات أو في العقود والالتزامات أو في جميع الجزئيات فيكون بذلك قد نبذ الإسلام وانسلخ عنه. وكذلك حتى في طلاق زوجته -المسلم- يجبره القانون على البقاء معها والإنفاق عليها، ويموت فتنقسم أملاكه على غير الفريضة التشريعية، ويصير مجبورا على التحاكم إلى غير قضاة الشرع².

5- التضييق على الصحف والصحفيين التونسيين:

كانت الصحافة التونسية تخضع للرقابة منذ انتصاب الحماية سنة 1881م، وذلك من خلال المحكمة الموسعة التي تجمع كل التقارير الخاصة بالجريدة وبالصحافيين فيما أرسلها إلى جهاز المخابرات التابع للإقامة العامة، فتكون هذه التقارير مصحوبة بمعلومات خاصة عن الصحافيين المعنيين بالأمر من حيث سيرتهم الذاتية ومستواهم التعليمي وعلاقتهم الخاصة³.

¹ - محمد بوطيبي، التجنيس في تونس بين القبول والمعارضة . . . ، المرجع السابق، ص 220.

² - محمد المختار بن محمود، "حكم الله في التجنيس"، مجلة الزيتونة، تونس، مج 1، 1936م، ج 1، ص 489.

³ - البشير ابن الحاج عثمان الشريف، أضواء على تاريخ تونس الحديث 1881-1924، ط 1، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 1981م، ص ص 155-156.

كما تم أيضا ترجمة بعض أعداد الصحف العربية إلى اللغة الفرنسية وجمع أقصى ما يمكن حولها من معلومات ليتم تحديد توجهها العام وموقفها من الحماية الفرنسية ومدى تأثيرها على التونسيين¹.

والجدير بالذكر أنه تم تكليف السيد برنار روي "Bernard Roy" بهذه المهمة التي بقي فيها لمدة 22 سنة من 1889 إلى 1910م، وكانت مهمته تتمثل في تتبع تطور الصحافة من تغيير أو تبدل للمواقف وعلى ضوء ذلك يتم اتخاذ الإجراءات لتطويع الصحافة التونسية لخدمة الأهداف الاستعمارية².

ومما يجب الإشارة إليه هو أن التقارير الواردة من الإقامة العامة بتونس تصل إلى مقر وزارة الخارجية وهو ما يؤكد الخطر الذي تشكله الصحافة العربية بتونس على مصالح الحماية، وبناء على ما تقدم تم بعث مكتب الإجراءات التنفيذية في 19 جوان 1909م تحت إشراف الإقامة العامة³.

ففي إحدى التقارير الخاصة بالإقامة العامة صنفت الصحف العربية على أنها ذات توجهات وطنية إسلامية، وخوفا على مصالحها من هذه التوجهات استصدرت قرارات حكومية نصت على ضرورة تكثيف عمليات التنسيق ونقل المعلومات وتداولها بين كل من تونس والجزائر وفرنسا، من أجل مراقبة أشد فاعلية للرجال الذين يضعون الحدث الصحفي بتونس⁴.

1 - حبيب حسن اللولب، المرجع السابق، ص 197.

2 - نفسه.

3 - البشير ابن الحاج عثمان الشريف، المرجع السابق، ص 156.

4 - حبيب حسن اللولب، المرجع السابق، ص 197.

كما قامت الإقامة ببعث مكتب خاص بالصحافة العربية في جانفي 1911م وبأمر من المقيم العام السيد قبريال الأبتيت "Gabriel La appétit"¹، الذي بعث برسالة بتاريخ 2 فيفري 1911م إلى المديرين الفرنسيين يحدد فيها مهمة هذا المكتب الذي تم تكليفه بمتابعة الصحف ومقارنة مضامينها مع مضامين قانون الصحافة وتحديد قائمة الأطراف المخالفة وترجمة المقالات الرئيسة إلى اللغة العربية².

أ- إغلاق ومصادرة الصحف التونسية:

كانت الصحف التونسية معرضة للتهديد والتوقيف عن الصدور كلما نشرت رأيا أو خبرا فيه إشارة تمس بنظام الحكم أو مصالح الفرنسيين ومعرضة إلى التوقف عن الصدور لقلة إمكانياتها المادية أو لقرار سياسي³.

أصدرت الإقامة العامة بتونس أمرا بتاريخ 15 أفريل 1908م إلى مصالح الأمن للقيام بعمليات لمراقبة تحركات الصحفيين التونسيين داخليا وخارجيا علما أن مشاكل الصحافة في تلك الفترة كثيرة بغض النظر عما يتعرض له الصحفي، فيتعرض الموزعون للمضايقات والاعتداء عليهم بدنيا من قبل أشخاص مجهولين يشتغلون مع الحماية.

وأمام هذا الوضع المزري والمترددي وجدت الصحف الوطنية طريقا وحيدا يضمن لها الاستقرار وهو الرضى بالأمر الواقع باستعمال أسلوب الذكاء والمناورة لرصد تحركاتهم⁴.

¹ -قبريال الأبتيت: هو المقيم العام الفرنسي في تونس (1906-1913) ولد سنة 1854م، في عهده صدرت العديد من الجرائد التونسية مثل جريدة التونسي لسان حال حركة الشباب التونسي التي كانت تدعو إلى الرفع من شأن التونسيين اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، توفي يوم 22 مارس 1932م. ينظر: نور الدين الدقي وآخرون، تنظيم الحكم بتونس في الفترة الحماية الفرنسية 1881-1956، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، 1998م، ص 198.

² -حبيب حسن اللولب، المرجع السابق، ص 199.

³ -عزيز عبد الكريم، المرجع السابق، ص 114.

⁴ -حبيب حسن اللولب، المرجع السابق، ص 200.

وفي حالة سفر أحد الصحفيين الوطنيين إلى الخارج مثل الجزائر أو المغرب تتكفل الإقامة العامة بتونس بإرسال تقرير تعلمها بقدوم الصحفي مع تحديد خط الرحلة مسبقا مع ملاحظات تخص السياسة يتم بعثها عن طريق أجهزة اتصال.

وعند تحرك الصحفي دون إعلان السلطات بذلك تتصل الإقامة العامة بتونس بمقرات قنصليتها وسفارتها للتنسيق مع جهاز الربط المركزي بباريس من أجل تبادل المعلومات وتحديد مكان الصحفي، فالسلطات الفرنسية تعمل حسب مزاجها وتمنح أو ترفض التأشيرة لمن تشاء¹.

ب- الإجراءات القمعية المتخذة ضد الصحفيين:

إلى جانب مجموعة من المشاكل المتعددة التي يتعرض لها الصحفي أثناء قيامه بعمله فإنه يجد نفسه تحت طائلة عقوبات كما يتم اتهامه باطلا في إطار السياسة الاستعمارية التي تهدف إلى معاملة التونسيين معاملة سيئة تتسم بالقمع والقهر والحط من الكرامة من ذلك مثلا:

1- محمد بورقيبة:

حيث قام بإجراء قانوني يتمثل في تقديم مطلب إلى السلطة المختصة لإصدار جريدة "لسان الحق" ولكن قبل إصدارها تم استدعاؤه من قبل السلطة الأمنية خلال شهر فيفري 1896م بسبب انتمائه سابقا إلى هيئة تحرير جريدة "المنظر".

وبعد صدور جريدة "لسان الحق" والتي اختفت عن الأنظار بعد صدور قوانين الضمان المالي².

¹ - عمر بن قفصية، أضواء على تاريخ الصحافة التونسية 1860-1970، دار بو سلامة للطباعة والنشر، تونس، د.س.ن، ص13.

² - قانون الضمان المالي: هو قانون أصدرته الإدارة الاستعمارية سنة 1984م، الذي يهدف إلى الحد من إصدار الصحف وإلزام كل راغب في الحصول على امتياز لإصدار جريدة بدفع ضمان مالي كشرط مسبق لذلك كغرامة مالية مقدمة تكون أداة تستخدمها السلطة متى شاءت ذلك. ينظر: محمد صالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962م، دار الحكمة الجزائر، 2007م، ص176.

قدم التماسا بإدارة نشرها ولكن تم رفضه كل ذلك اضطره إلى تقديم مطلب آخر في التماس وظيفة عمومية بادعاء باطل مفاده أنه كان نشطاً مع أعضاء جريدة "المنتظر"¹.

2- سليمان الجادوي:

هو مدير جريدة "المرشد" والتي شنت عبر صفحاتها حملة صحفية ضد الإدارة الفرنسية، فتم رفع دعوى قضائية ضده وحكمت عليه محكمة يوم 19 مارس 1906م بالسجن لمدة شهرين وبدفع غرامة تقدر بـ 300 فرنك فرنسي، وفي 28 ديسمبر 1907م تمت مقاضاته من جديد بتهمة التهجم على الباي محمد الناصر وحكم عليه بالسجن لمدة شهرين وبدفع غرامة تقدر بـ 800 فرنك فرنسي، وأصدر بعد ذلك جريدة "أبو نواس" والتي جاءت حولها التشكيلات من الموظفين المتعاملين مع الحماية والإقامة العامة بالجزائر².

3- الطيب بن عيسى:

أنشأ جريدة الوزير في إطار ردود الفعل الاحتفال بخمسينية الحماية في ماي 1931م، حيث نشر مقالا يوم 16 أبريل يحمل عنوان "حالة البلاد الآن" ونقد فيه الطابع العنصري للقضاء الفرنسي، وتبعاً لذلك تم تعطيل الجريدة يوم 12 ماي وأحيل صاحبها الطيب بن عيسى إلى المحكمة وأصدرت حكمها وهو يقضي بالسجن لمدة ثلاثة أشهر وخطية بقيمة بألف فرنك³.

4- المنصف المنستيري:

صاحب جريدة الإرادة الذي أحيل صاحبها على القضاء العسكري في 27 ماي 1952م بتهمة نشر معلومات خاطئة عن مصرع الكولونيل "دوران" قائد حامية سوسة، وحكمت عليه المحكمة بثلاثة سنوات سجنا مع تأجيل التنفيذ وبمليون فرنك خطية⁴.

¹ - حبيب حسن اللولب، المرجع السابق، ص ص 205-206.

² - خميس العرفاوي، المرجع السابق، ص 340.

³ - عمر بن قفصية، المرجع السابق، ص 103.

⁴ - خميس العرفاوي، المرجع السابق، ص 345.

خلاصة الفصل:

لقد انتهجت الإدارة الفرنسية سياستها الاستعمارية على البلاد التونسية منذ انتصاب الحماية، اعتماداً على اتفاقية المرسى التي كرسّت وعمقت الهيمنة الاستعمارية، والتدخل في الشؤون الداخلية بتونس، فانتهجت العديد من السياسات التي تمس كل المقومات الوطنية والدينية .

ومن بين هذه السياسات هي السياسة الدينية والثقافية التي مست بشكل كبير كل المؤسسات الدينية والتعليمية، فكانت من إفرازاتها في السياسة دينياً هو الاستيلاء على الأوقاف الإسلامية وبيع الأحباس بمختلف أنواعها وكذلك نجد سياسة التصير التي تمثلت في سياسة الإبادة الروحية، كما وصلت إلى احتواء واستمالة شيوخ الطرق الصوفية لخدمة مصلحتها.

وأصبح الفرد التونسي يحاكم في المحاكم الفرنسية دون المحاكم الشرعية التونسية.

أما سياستها اتجاه المؤسسات التعليمية فقامت بمحو اللغة العربية في جميع الإدارة ومن بينها المؤسسات التعليمية وإحلال اللغة الفرنسية، مع تهميش التعليم الذي كان متواجداً قبل الحماية بإدخال برامج عصرية جديدة تخدم مصالحها الاستعمارية وذلك من خلال إنشاء مدارس فرنسية لها، كما عملت على مصادرة الصحف ومعاقبة المسؤولين عليها.

الفصل الثالث

مواجهة المؤسسات الدينية والعلمية للسياسة الدينية والثقافية الفرنسية

أولاً: دور المؤسسات الدينية التونسية في مواجهة السياسة الفرنسية
الدينية والثقافية:

- 1- إصلاح التعليم الزيتوني.
- 2- مقاومتها لسياسة التنصير.
- 3- مواجهتها لسياسة التجنيس ودفن المتجنسين في المقابر الإسلامية.
- 4- الدفاع عن الهوية الوطنية الإسلامية.
- 5- الدفاع عن المقدسات الإسلامية.
- 6- الدفاع عن العروبة والإسلام.

ثانياً: دور المؤسسات العلمية في مواجهة السياسة الثقافية

- 1- التعبئة الشعبية.
- 2- مواكبة الحضارة الغربية.
- 3- النهوض بالتعليم العربي.
- 4- مواجهة سياسة الفرنسة.
- 5- مواجهة سياسة التغريب.
- 6- مقاومتها الأدبية والفكرية.

أولاً: دور المؤسسات الدينية التونسية في مواجهة السياسة الفرنسية الدينية والثقافية:

لقد كان للمؤسسات الدينية موقفاً مناهضاً للسياسة الفرنسية الدينية والتعليمية أيضاً التي كانت تمس الذاتية التونسية والدين الإسلامي، والاعتداء الاستفزازي لشعور المسلمين، التي تصدت لها بكل الوسائل والطرق للمحافظة على كيان الأمة التونسية من الشتات.

1- إصلاح التعليم الزيتوني:

لقد همش التعليم التقليدي المتمثل في جامع الزيتونة بتونس من طرف الإدارة الاستعمارية لذا يعتبر دور الزيتونة رمزاً سابقاً في التصدي لرغبة الإدارة الفرنسية في هضم مقومات وقيم المجتمع التونسي، ولعل هذا الأمر هو الذي دفع بـ"لوي ماشويل" منذ بداية إلى صرف النظر مؤقتاً عن المساس بقديسية المكان وتأجيل ذلك إلى ساعة الحسم، خاصة عندما أظهر رواد الزيتونة منذ انتصاب الحماية من مواقف مستعصية جعلت البعض منهم يدفع حياته ثمناً لها، في حين فضل الآخرون الهجرة في الوقت الذي أثر فيه طرف ثالث المرابطة في انتظار الفرج باعتبار أن عمله ذلك لا يعدو كونه صموداً حول ثغر من ثغور الإسلام¹.

في البداية سعت سلطات الحماية إلى تقزيم دور الزيتونة في مقابل تسليط الضوء على الشخصيات الصادقية، إلا أنه أمام تنامي العمل الزيتوني إيجابياً فقد كان طلبة جامع الزيتونة الذين تكونت منهم الطبقة الثقافية الكادحة أكثر مساهمة في المواقف التي حالت بين الحكومة وطموحها في فرض ما تراه على التونسيين².

¹ - أحمد عبد السلام، المدرسة الصادقية والصادقون، بيت الحكمة، تونس، 1994م، ص202.

² - محمد قدور، السياسة التعليمية الفرنسية في تونس 1883-1939، إشراف، شاوش حباسي، (رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر)، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2003-2004م، ص280.

1/مراحل الإصلاح في جامع الزيتونة:**أ- النهوض الطلابي الزيتوني للإصلاح:**

قامت حركة الشباب التونسي بدور بارز في نشأة الحركة الطلابية وتطورها، التي طالبت بإصلاح التعليم الزيتوني¹، فعقدت طلبة الزيتونة اجتماعا عاما بفناء الجامع الأعظم بتاريخ 10 مارس 1910م، فكانت مطالبهم منصبة حول تحسين ظروف الدراسة والإقامة والإعفاء من ضريبة المجبي، فانتهى الأمر بإضراب 18 أبريل 1910م².

فقد حقق الطلبة بعض المكاسب التي رفعت للسلطة الوصية منها إلغاء الامتحان المهيأ لتحضير شهادة التطويع، وتجديد اللجنة كل سنة، وتوصية الإدارة بمعاملة الطلبة برفق.

رغم الإصلاحات التي مست جوانب التعليم الزيتوني فإن النشاط الطلابي لم يتوقف وظلت الحركة الطلابية تعارض السلطات الفرنسية³.

ب- إصلاحات سنة 1933م:

تمت هذه الإصلاحات بموجب مرسوم الباي 30 مارس 1933م المتعلق بالجانب الإداري والتعليمي في الجامع الأعظم، كما نصت الإصلاحات الجديدة على وجوب إعطاء الدروس الدينية واللغوية الضرورية التي تتماشى والدين الإسلامي، مجانية التعليم في كل مرحله، وإشراف الجامع الأعظم على ملاحقه، وتحديد المواد التي تدرس في الزيتونة وفروعها⁴.

¹ - ينظر ملحق رقم 06، ص 141.

² - عبد الباسط الغابري، المؤسسة الزيتونية والإصلاح، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، 2015م، ص 16.

³ - نفسه، ص 17.

⁴ - محمد بوطيبي، "التعليم في جامع الزيتونة خلال النصف الأول من القرن العشرين (دراسة في المنهج والبرنامج)"، المجلة المغاربية للمخطوطات، العدد 5، 2017م، ص 209-211.

ج- إصلاحات سنة 1944م:

لقد تم تحديد هذه الإصلاحات بموجب مرسوم 20 أبريل 1944م والذي حدد رتب أساتذة التعليم العالي قصد النهوض بالتعليم ورفع المستوى التعليمي فلقد حددت شهادات المدرسين، فأساتذة التعليم العالي يدرسون طلبة مرحلة التعليم العالي، وأساتذة القسم الأول والثاني يدرسون طلبة تعليم العالي وطلبة القسم الأول والثاني يدرسون المرحلة الثانوي، أما المرحلة الابتدائية فيدرسها أساتذة القسم الثالث وحاملي الشهادات الرسمية منها التطوعية الأهلية والتحصيل والعلمية¹.

د- إصلاحات سنة 1945م:

لقد تجددت الاحتجاجات المطالبة بإصلاح التعليم الزيتوني بعد الحرب العالمية الثانية بسبب الاحتجاجات الطلابية التي لقيت تشجيعاً من الشيخ الطاهر بن عاشور الذي أزيح من مشيخة الجامع الأعظم من قبل، حيث انظم المدرسون إلى مطالب الطلبة بعقد مؤتمر المدرسين سنة 1944م الذي طالب بإصلاح التعليم، وإعادة ابن عاشور لمنصبه ثانية، حيث وافقت عليه الحكومة في شهر أبريل 1945م، وكانت من أهم مطالبهم:

- رفع عدد الطلبة بفروع جامع الزيتونة الذي يتجاوز العشرين ألفاً.
- الاهتمام بشؤون الطلبة مادياً ومعنوياً بإنشاء الحي الزيتوني.
- إعادة تنظيم التعليم الابتدائي القرآني المهني للتعليم الزيتوني².

¹ - عبد الباسط الغابري، المرجع السابق، ص 19.

² - محمد بوطيبي، المرجع السابق، ص ص 217-218.

2/ وسائل النخبة الزيتونية:

لم تكن وسائل النخبة الزيتونية تختلف عن الأساليب التي اعتمدها باقي المؤسسات الأخرى، إلا أن الميدان المفضل عندها استمرار المجال الدفاعي بمعناه الواسع.

أ- النشاط العلمي والثقافي:

إزاء التأثيرات التي تركتها الثقافة الاستعمارية على التونسيين، ارتكزت المقاومة أولاً على الحفاظ على العادات والتقاليد التي تمثل امتداداً لهوية الشعب التونسي، وعلى هذا الأساس فإن الأفكار العلمانية التي عبر عنها الشيخ عبد العزيز الثعالبي من خلال كتابه روح التحرر في القرآن للدفاع عن الهوية الوطنية.

إذ مع مرور الوقت عرف الجامع بروز فكري كان يعمل على تحريك عجلة التحولات الثقافية داخل هذا الحصن الذي سرعان ما تحول إلى مركز إشعاع، ووعي سياسي واجتماعي¹.

كانت المطالب الأساسية المقدمة من قبل الشبان الزيتونيين لتحطيم العزلة والوضع الهامشي الذي كانت السلطات الاستعمارية تعمل جاهدة إلى جعلهم يتموقعون ضمنها تتمثل في:

- 1- منح اللغة العربية المكانة المرموقة التي تستحقها في التعليم باعتبارها اللغة الوطنية وأداة للتعليم.
- 2- إصلاح التعليم الزيتوني سواء من حيث المحتوى أو من حيث الطرق التربوية.
- 3- الموازنة بين التكوين والتشغيل بمعنى إيجاد همزة وصل بين ما تعمل فيه الزيتونة وما يصبو إليه النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي تصبو إليه حكومة الحماية².

¹ - محمد قدور، المرجع السابق، ص260.

² - علي الجندي، "سير الحركة العلمية والثقافية بتونس، مجلة البصائر"، الجزائر، العدد294، 1954-1955م، ص196.

ب- إضرابات طلبة الزيتونة:

بروزت أجيال متلاحقة من الشباب الزيتوني منذ إضرابات سنة 1910م، 1928م، 1930م، للمطالبة بإصلاح التعليم الزيتوني وجعله مواكبا لروح العصر¹، وبضبط جداول أوقات التدريس لوضع حد لغيابات المدرسين وتدريس مواد التاريخ والجغرافيا، وقد ناصرهم علي باش حامبه ثم انتهى هذا الإضراب في شهر أفريل من نفس السنة مع إطلاق سراح 8ثمانية من الطلبة المسجونين وتعهد الحكومة باعتماد مبدأ الإصلاحات².

ج- إنشاء مدارس قرآنية:

عندما قامت الحرب العالمية الثانية جندت الحكومة الفرنسية المعلمين الفرنسيين الذين كانوا يدرسون في المدارس العربية الفرنسية، فقام عدد كبير من خريجي الزيتونة بتنظيم تعليم وطني يسد الفراغ فأسس عدد منهم المدارس القرآنية الحرة، واكتشافهم لنوايا السلطة الاستعمارية الرامية إلى محو الروح القومية بعد أن كانوا يعتقدون أن التواجد الأجنبي لا يتعدى دوره مساعدة البلاد على الخروج من الأزمة الاقتصادية³.

فأسس بعض الزيتونيين مدارس حرة للتعليم الابتدائي وذلك بمساعدة بعض العائلات الموسرة، فقد أطلق على هذه المدارس فيما بعد المدارس القرآنية الأهلية تميزا لها عن المدارس العربية الفرنسية⁴.

لكل ما تقدم ذكره يمكن أن نرجع أسباب ظهور المدارس القرآنية إلى أنها تربية ثقافية حضارية تعمل على الحفاظ على مقومات الشعب التونسي الحضاري من لغة ودين وإظهار

¹ - الغابري عبد الباسط، "الزيتونيون والوعي بقيمة الثقافة في تحقيق الاستقلال الكامل"، الحوار المتوسطي، مارس 2017م، ص 184.

² - يوسف مناصرية، المرجع السابق، 47.

³ - محمد عابد الجابري، التعليم في المغرب العربي دراسة تحليلية نقدية لسياسة التعليم في المغرب وتونس والجزائر، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1989م، ص 77.

⁴ - نفسه.

الوجه الحقيقي لنوايا الاستعمار الذي وضع أول مهامه القضاء على المقومات الحضارية للبلاد وأهمها اللغة¹.

فالمدرسة القرآنية لا تقتصر على تعليم القرآن فقط بل تعطي دروسا في جميع المواد التي تدرس في المدارس الفرنسية العربية²، ولكن باللغة العربية جميعها بينما تدرس اللغة الفرنسية كلغة فحسب وذلك راجع إلى افتقار المدارس القرآنية للإطار الذي يدرس الفرنسية³.

فاشتدت حركة المطالبة بإصلاح التعليم الحكومي وتعريبه، وفي هذا الإطار تقدم الاتحاد التونسي للشغل سنة 1946م (وكان على صلة بالزيتونيين وكان بعض قاداته أطر منهم) ببرنامج عام لإصلاح التعليم قوامه الرفع من حضر اللغة العربية، لقد اعترضت السلطات الفرنسية على البرنامج ولكنها إذ رفضت التعريب الكلي أخذت بمبدأ التعريب الجزئي بصورة لا تمس وضعية اللغة العربية، وفي سنة 1947م تمكنت الجمعية الخلدونية من إحداث بكالوريا بالعربية يتقدم إليها الزيتونيين قصد الالتحاق بالتعليم العالي بالمشرق⁴.

د- إنشاء جمعية الشبان المسلمين بتونس:

ظهرت جمعية الشبان المسلمين على إثر سعي الإدارة الاستعمارية إلى تجميد التعليم الزيتوني بهدف حصره في الآداب العربية والعلوم الشرعية فكانت تهدد خريجي الجامعة الزيتونية في مستقبلهم⁵.

¹ - محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص78.

² - ينظر الملحق رقم، 07، ص142.

³ - بوزيان الحسين بن محمد، المدارس القرآنية بتونس من عهد الاستعمار إلى الاستقلال 1881-1956م، (مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه حلقة ثالثة)، إشراف أبو القاسم العلبوي، المعهد الأعلى لعلوم الدين، جامعة الزيتونة، تونس، 1996م، ص9-15.

⁴ - محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص77.

⁵ - خليفة الشاطر وآخرون، تونس عبر التاريخ الحركة الوطنية ودولة الاستقلال، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 2005م، ج3، ص94.

فقد برزت في أكتوبر سنة 1928م التي تهدف إلى الإصلاح الاجتماعي والديني بالمسلمين التونسيين وحملهم على إتباع كتاب الله وسنة رسوله، وبعث فيهم الروح التربوية القومية الحقة والوحدة الإسلامية، التي كان يترأسها الشيخ محمد الصالح بسيس¹.

فكانت من أهم مطالبها التي قدمتها في شكل عريضة للجنة التحقيق البرلمانية الفرنسية تتمحور حول ثلاث نقاط: التعليم، اللغة العربية، ومستقبل الشباب، ففي ميدان التعليم ذكرت الجمعية بالوضع المتردي الذي أصبح يعيشه هذا القطاع، فطالبت بإقرار إجبارية التعليم وتكثيف المدارس الحرة ورصد التمويلات لها والإسراع في تطبيق الإجراءات المتخذة لإصلاح التعليم الزيتوني، كذلك تناولت بالدرس وضع اللغة العربية في المدارس الابتدائية، أما النقطة الثالثة فقد خصتها لوصف الأزمة الاجتماعية التي يعيشها الشباب التونسي نظرا لقلّة الاكتراث التي يبديها المستعمر لتشجيع الحركة الكشفية والرياضية في المجتمعات الإسلامية².

كما ساهمت جمعية الشبان المسلمين في حركة المقاومة التي أشرف عليها الدكتور الحبيب ثامر (1939-1941م) وفي الميدان التربوي، نظمت مجالس التذكير في المساجد بالعاصمة وفي مختلف مدن وقرى الإيالة، وأسست فروعاً للمحافظة على القرآن الكريم وفتحت دروساً ليلية لتعليم مبادئ القراءة والحساب وعرض الأفلام التثقيفية كما أقامت المحاضرات ومهرجانات الذكريات الدينية³.

¹ - محمد الصالح بسيس: كاتب أديب مفكر، ولد بتونس سنة 1914م، كان أستاذاً بجامع الزيتونة، له العديد من المؤلفات، كما كتب في الصحافة مثل الزهرة والنهضة... كما كان عضواً في الجمعية الشبان المسلمين. ينظر: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1994م، ج1، صص 98-101.

² - لطفى الشابيبي، "خلفيات البعد الثقافي والاجتماع والتربوي لجمعية الشبان المسلمين بتونس (1944-1947)"، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس، العدد5، 1991م، صص 158-159.

³ - محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص77.

فأصبحت جمعية الشبان المسلمين أداة الوصل بين الثقافة الزيتونية وبين الجمهور غير المثقف، فكان نشاطها في هذه الفترة سنة 1944م من أقوى العوامل في بروز عظمة الجامعة الزيتونية لنظر الرأي العام¹.

كما اتسمت الجمعية بالغطاء الثقافي الديني (وعظ وإرشاد) لإيقاظ الشعور الوطني والمطالبة بالاستقلال، فيتم من خلال الخطب والدروس التي كان يلقيها مسيرو الجمعية بالحدز وتعمد الغموض ففي يوم 22 مارس 1946م، تطرق الشيخ محمد الصالح النيفر رئيس الجمعية في اجتماع حضره جميع الطلبة إلى قضية الاستقلال، كما تعرض الشيخ محمد الفاضل بن عاشور والشاذلي بن القاضي ومحمود بن الطاهر في اجتماع التأم بتونس يوم 17 جويلية 1946م إلى موضوع التضحية في سبيل الوطن، وكذلك الحث على تكثيف عدد المدرس القرآنية من أجل التعليم بهذه المدارس وإعداد تلاميذها وتأهيلهم للإحراز على الشهادة الأهلية بجامع الزيتونة وعلى الشهادة الابتدائية للغة الفرنسية واجتياز مناظرات القبول بالمدارس الثانوية الأخرى كالمدرسة الصادقية ومعهد كارنو².

2- مقاومتها لسياسة التنصير:

تعتبر سياسة التنصير أول مظاهرة انتظمت بتونس بعد مظاهرات المرسى يوم 5 أبريل 1922م³ للاحتجاج على نصب تمثال الكاردينال لافيغري عام 1925م، فما أن صادقت السلطات الاستعمارية على نصب ذلك التمثال في باب تونس العاصمة باتجاه جامع الزيتونة⁴، حتى احتج التونسيون على هذا العمل الجارح لعواطفهم والماس بعقيدتهم، فنزل السكان إلى شوارع تونس العاصمة يوم 28 نوفمبر مطالبين بإزالة ذلك التمثال، ونظموا

¹ - محمد الفاضل ابن عاشور، المصدر السابق، ص 217.

² - لطفي الشايبى، المرجع السابق، ص ص 143-147.

³ - مظاهرات المرسى: هي مظاهرات انتظمت على اثر الإشاعة المتعلقة بتنازل الناصر الباي عل العرش. ينظر: أحمد عبد السلام، المرجع السابق، ص 207.

⁴ - Charles André Julien, **et la Tunisie devint independante 1951-1957**, les éditions J.A/S.T.D.France, 1985, p21.

مظاهرات دعا إليها الحزب الدستوري، وكان الطلبة أهم المساهمين فيها، فقد تجمع المتظاهرون أولاً أمام مشيخة المدينة وتشكلت منهم لجنة ضمت كلا من، الطاهر الحداد¹، عبد الرحمن اليعلاوي والعربي القروي، قامت بمقابلة شيخ المدينة وسلمته لائحة احتجاج باسم المتظاهرين، ثم مرت المظاهرة بجامع الزيتونة، فدخل المتظاهرون على المشايخ وتلاميذهم في حلقات دروسهم وأخذوا يتنافسون مع المدرسين بشأن ما إذا كان وضع التمثال لافيغري في قلب العاصمة حلالاً أم حراماً من الناحيتين الدينية والوطنية فأخرجوهم للمشاركة في المظاهرة مع طلبتهم فكان ذلك مما ضاعف نشاط المتظاهرين وقوى حماسهم².

فقاموا بتحطيم هذا التمثال الحجري الذي وقع تغييره بأخر من حديد، كما نددت الصحافة الوطنية الصادرة في تلك الفترة بهذه العملية مثل جريدة "مرشد الأمة" ساخرة من المقيم العام على ما قام به إرضاء للكنيسة، كما انتقدت بعض الصحف الاستعمارية ذلك الإجراء حيث جاء على لسان أحد محرري جريدة "تونس الاشتراكية" ما يلي: "إن إقامة ذلك التمثال بذلك المكان الإسلامي باقتراح المجلس البلدي ساحة رهبانية على صورته تلك خيانة تاريخية لصاحبها وتحريش كنيسي بالمسلمين³.

وقد أدت هذه المظاهرة إلى إبعاد بعض قادة الحزب الحر الدستوري إلى الجزائر مثل عبد الرحمن اليعلاوي، ونفي إلى جهات مختلفة كل من الشيخ العربي القروي والشيخ أحمد الشطي ومحمد النجار، كما حكم على البعض الآخر بالسجن مثل الحسن الحصري، كما تم

¹ - الطاهر الحداد: هو كاتب وأديب وشاعر وصحفي، واحد مؤسسي الحركة النقابية الأولى بتونس، من خريجي جامع الزيتونة، له العديد من المؤلفات من بينهم كتاب "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" الذي احدث ضجة في أوساط رجال الدين الذي أدى إلى سحب شهادته منه، توفي سنة 1935م. ينظر: الطاهر المناعي، المرجع السابق، ص 394.

² - علي الزيدي، المرجع السابق، ص 328.

³ - ريم غانمي، المرجع السابق، ص 84.

رفع العديد من طلبة جامع الزيتونة بتهمة تحريض زملائهم للمشاركة في المظاهرة، وقد عطلت جريدة من أحسن الجرائد العربية الإسلامية وهي جريدة "مرشد الأمة"¹.

وانطلاقاً مما تقدم نلاحظ القمع الكبير الذي تعرض له المواطنون عندما أرادوا التعبير عن رفضهم لإقامة هذا التمثال الذي جرح عواطفهم ومس عقيدتهم، وقد ظل تمثال الكاردينال لافيغري قائماً في مكانه متحدياً شعور الأهالي طيلة الثلاثين سنة ولم يتم إزالته إلا في ماي سنة 1956م أين وقع وضعه في كنيسة قرطاج².

3- مواجهتها لسياسة التجنيس ودفن المتجنسين في المقابر الإسلامية:

أ- موقف علماء الدين:

يرى بعض علماء الدين التونسيين أن التجنيس هو نوع من الردة على الإسلام، فهناك من لم يجز دفن المتجنسين في مقابر المسلمين مثل الشيخ إدريس بن محفوظ الشريف عضو في المجلس الشرعي التونسي، ومنهم من كفروا المتجنس مثل الشيخ أحمد عباد في الفتوى المنسوبة إليه والتي نشرتها جريدة الأمة بتاريخ 13 نوفمبر 1923م³.

واعتبروا أن المتجنس مصيبة من المصائب التي زلزلت المسلمين في دينهم الإسلامي وأن التجنيس كان عاملاً مثيراً للفتن الكبرى في البلاد التونسية⁴.

وقد حاول علي كاهية معالجة مسألة التجنيس في مطلع سنة 1923م عندما أحجم المشايخ عن تقديم فتوى تجيب عن طلبات الأهالي المتعلقة بمسألة التجنيس في البلاد، واعتبر المفكر علي كاهية أن المتجنس مرتد عن الإسلام بقوله: "كنت في مباحثتي بشأن التجنيس أتمسك بهذه النظرية المعضدة بالآية الكريمة فأعتبر المجنس مرتدًا خارجًا عن دائرة

1 - علال الفاسي، المصدر السابق، ص 58.

2 - محي الدين القليبي، ظاهرة مريبة في سياسة الاستعمار الفرنسي، المكتبة السلفية، القاهرة، ص 30.

3 - محمد بوطيبي، المرجع السابق، ص 226.

4 - نفسه، ص ص 226-227.

الإسلام"، باعتبار أن التونسي المجنس تطبق عليه القوانين السارية المفعول، وبذلك يفقد حق عصمة الطلاق على المرأة، وفي حالة وفاته يلغي الميراث الإسلامي وينقسم أولادها الإرث بالمساواة¹.

أن مسألة التجنيس عرفت منعرجا حاسما عام 1930م، بسبب رفض التونسيين دفن المتجنسين في المقابر الإسلامية، كما هو الحال في قريتي أكودة وحمام سوسة بجبهة الساحل التونسي، وأصبحت مسائل مواراة جثث المتجنسين تثار على المستويات المحلية وتتناولها الصحف التونسية².

ب- المساجد ترفض التجنيس:

إن التجنيس فكرة غير مقبولة لدى فئات المجتمع التونسي، لدرجة منعهم تأدية الصلاة في المساجد فأصبحوا ينظرون إليهم نظرة احتقار كما أشارت بعض التقارير الأمنية إلى تظاهرة الأهالي في آخر جمعة من شهر سبتمبر سنة 1941م بمسجد سيدي الطاهر بكاف القصور التابعة لقيادة المهديّة قصد إبعاد المجنسين عن تأدية صلاة الجمعة في المسجد المذكور³.

وظل العلماء التونسيون على موقفهم السلبي من مسألة التجنيس بعدم إصدار فتوى في شأن التجنيس، ففي سنة 1937م نشر محمد بن سالم مقالا يعاتب فيه العلماء على موقفهم المتخاذل من التجنيس بقوله: "إن الدستوريين قدموا سؤالاً لشيخ الإسلام وعلماء الدين، طلبوا منهم الإفتاء في مسألة التجنيس فلم يجيبوا عن سؤالهم، وذلك تحت ضغط السلطات الاستعمارية التي كانت تمرر قراراتها وتستصدر ما يحكم مصالحها، كما ذكر الشيخ محي الدين الخطيب قال: "ولما استفتى المسلمون في تونس علماءهم عن حكم التجنيس في نظر

1 - محمد بوطيني، المرجع السابق، ص228.

2 - علال الفاسي، المصدر السابق، ص58.

3 - ريم غانمي، المرجع السابق، ص90.

الشرع الإسلامي، حجرت حكومة الاحتلال على العلماء الرسميين الإفتاء وبيان حكم الله في هذا الأمر، فسكتوا وكتموا ما أنزل الله من البينات والهدى، إلا من رحم الله¹.

فالمفتون بجواز تجنيس المسلم -في هذه المرحلة- بجنسية بلد غير مسلم هم العلماء الرسميون كما قال محي الدين الخطيب، ويعني بهم هنا شيخي الإسلام المالكي والحنفي معا، كما جاء في معرض حديثه عن نازلة وقعت في بنزرت إحدى المدن التونسية مفادها (أن أحد المتجنسين مات فاعترض المسلمون على دفنه في مقابرهم لأنه مرتد)، فلم تصغ الحكومة لهذه المعارضة واستفتت مفتي المدينة إدريس الشريف، فأفتى بردته، وعدم جواز دفنه في مقابر المسلمين)².

ولقد كانت لهذه الفتوى دوار عظيم في شحذ عزائم عموم التونسيين في تعبئة السكان ضد نظام المسخ الاستعماري وإلى جانب هذا وفرت مرجعية أدبية ودينية يمكن أن تساعد أولا على تعبئة شاملة للسواد الأعظم على السكان التونسيين³.

ب- وسائلهم:

1/ إصدار فتاوى:

لقد تم إصدار آخر فتوى في المؤتمر القومي الزيتوني الثالث بخصوص مسألة التجنيس على غرار الفتاوى السابقة، إن مسألة التجنيس كانت مطروحة بشدة في جامع الزيتونة، مما جعل الطلبة الزيتونيين يلحون على ضرورة إصدار فتوى شرعية من طرف العلماء التونسيون تبين موقف الدين الإسلامي من ذلك، حيث قام أحد التونسيين بنشر مقال

¹ - محمد الكدي العمراني، فقه الأسرة المسلمة في المهاجر (هولندا أنموذجاً)، ج2، دار الكتاب العلمية، بيروت-لبنان، ص293.

² - نفسه.

³ - حفيظ طبابي، البناء الوطني وتحديات الاستقلال، الدار التونسية للكتاب، تونس، 2011م، ص86.

في جريدة الصواب في الفاتح فيفري 1924م، تحت عنوان "العلماء والتجنيس التونسي" بهدف توضيح موقف العلماء من هذه المسألة¹.

مما جعل إدارة جامع الزيتونة تعقد هذا المؤتمر المتأخر لمناقشة مسألة التجنيس التونسي وظهور فتوى لشيخ العالم الإسلامي توضح موقفهم من التجنيس في ظل سكوت شيخ الزيتونة والعلماء المحسوبين على البلاط².

وعليه فقد تم عقد المؤتمر القومي الزيتوني الثالث ما بين 15-17 نوفمبر 1955م بالزيتونة تحت إشراف محمد الأمين الأول وبحضور الحكومة التونسية، مشيخة الإسلام، الوزراء والزعماء، القضاء الشرعي والعدلي والاتحاد العام للشغل التونسي، وفي هذا المؤتمر ظهرت معارضة التجنيس، حيث طالب أعضاء المؤتمر من المجنسين التونسيين بضرورة العودة إلى الجنسية الأصلية القديمة مع كافة أطراف عائلاتهم، كما ندد المؤتمر بمواقف الحكومة الفرنسية إزاء الطلبات التي قدمها الأهالي التونسيون رغبة في التجنيس، وفي الأخير طالب المؤتمر كافة الهيئات الجمعيات والمؤسسات المساندة والوقوف إلى جانب هذا البيان الصادر في حق التجنيس³.

2/الشعر:

كانت لطاهر حداد الحرية الصحافية حيث كان يرفض السياسة الاستعمارية الرامية إلى قتل السياسة الثقافية، خاصة عند محاولة الإدارة الاستعمارية القضاء على الذاتية التونسية وإحاق تونس بفرنسا وهو ترغيب السكان في التجنيس بالجنسية الفرنسية ذلك ما أوضح خلال المقال الذي ما كتبه في جريدة الأمة بعنوان "التجنيس نكت عهداً"⁴، كما نظم

¹ - محمد بوطيبي، المرجع السابق، ص 230.

² - نفسه، ص 231.

³ - نفسه.

⁴ - ينظر الملحق رقم 07، ص 142.

الحداد الأشعار لتحذير الرقدة الغافلين من خطر التجنيس وحرك فيهم غريزة الدفاع عن
كيانهم وحثهم على نفض غبار قرون الركود لقوله:

أفق أيها الشعب المهان فقد أتوا *** إليك بتجنيس لعلك تخذع
وأبد لهم بالحق أنك ماجد *** وإن كنت في بؤس فجنسك أرفع
ولا ترهبين فالخوف موت محقق *** يعم بنينا شره المتطلع
نهوضاً إلى المجد الذي شاد أهلنا *** بعزم له قلب الصفا يتصدع¹.

3/الخطب المسجدية:

التي مثلها الفاضل بن عاشور حول آرائه الإصلاحية في التعليم من خلال خطبته في
شهر رمضان سنة 1945م وذلك بإشارة إلى:

- ضرورة تعليم العلوم العصرية.

- نبذ التقليد والجمود.

- اجتناب طريقة المتون والحواشي في سنوات التعليم الأولى.

- الاعتناء بعلم الأخلاق وتدريبه، دراسة علمية.

كما أشار الشيخ إلى مسائل أخرى ذات طابع إداري وتنظيمي، وإحداث إدارة خاصة
مكلفة بشؤون سكنى الطلبة، ومسؤول عن جمعية الحي الزيتوني وتنظيم التعليم الابتدائي
القرآني المهيأ للتعليم الزيتوني².

¹ - أحمد خالد، أضواء من البيئة التونسية على الطاهر الحداد ونضال جيل، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985م، ص
ص132-133.

² - محمد تليجاني، الفعل الإنساني عند الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، (مذكرة لنيل شهادة الماجستير)، إشراف سالم
الطباي، كلية المعهد الأعلى لأصول الدين، جامعة الزيتونة، تونس، 2001م، ص19.

4- الدفاع عن الهوية الوطنية الإسلامية:

أ- المؤتمر الأفخارستي:

فقد أثار الاحتفال بالمؤتمر الأفخارستي وخمسينية الحماية الفرنسية الاستفزازية شدة حساسية التونسيين للقضايا المتعلقة بالهوية والدين ورأوا فيها مؤامرة على الدين واللغة ومن ثمة مؤامرة على الهوية¹.

ويعتبر المؤتمر الأفخارستي أحد تجليات الهجوم الاستعماري على الهوية العربية الإسلامية مؤتمر موجه ضد الإسلام ويرمي للقضاء على الشخصية التونسية العربية المسلمة حيث بادر طلبة الزيتونة بإعداد رد فعل جماعي ضد المؤتمر بعقد اجتماع عام في صحن جامع الزيتونة بالاشتراك مع تلامذة معهد كارنو والمدرسة الصادقية والعلوية وقرروا تنظيم مظاهرة ضخمة أمام الإقامة العامة، ودخلوا في إضراب عن الدروس من 3 إلى 13 ماي، وقد قامت الشرطة بتشتيت المظاهرة وإيقاف 17 متظاهرا منهم 09 من الزيتونيين، ومن الغد قرر الطلبة المجتمعون في جامع صاحب الطابع الإضراب لمدة ثلاثة أيام، لا في جامع الزيتونة فحسب بل أيضا في سائر المعاهد الثانوية الأخرى، وعبر الكثير من التونسيين خلال الاجتماعات العامة المنعقدة في مختلف أحياء العاصمة عن استنكارهم ودعوا المسلمين إلى إعلان الجهاد في سبيل الله كما نظمو مظاهرة في حي الحفاوين وتجمعوا في جامع الطابع ولم تتوقف المسيرات بانتهاء أشغال المؤتمر 07-11 ماي بل تواصلت بعده تضامنا مع الطلبة الموقوفين 11 (بعد أن تم الإفراج عن البعض منهم) قدرت الأوساط الوطنية عدد المتظاهرين بين ألفين وسبعة آلاف².

¹ - إبراهيم خضر العبيدي عواد و حسين علي خضير العبيدي، "الخلافات الايدلوجية الفكرية في الحركة الوطنية التونسية 1937-1937م"، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العدد4، مج23، 2016م، ص11.

² - حفيظ طبائي، المرجع السابق، ص93.

ومن بين الذين تصدوا لفضح المظهر الجديد للسياسة الاستعمارية التي تريد طمس أهم مقومات الشخصية العربية المسلمة في تونس، الزعيم محي الدين القليبي¹ حيث ألف كراسا في الموضوع نشرته المطبعة السلفية في القاهرة بتاريخ 6 ديسمبر 1931م تحت اسم "ظاهرة مريبة في سياسة الاستعمار الفرنسي، هل تمثل مأساة الأندلس من جديد في شمال إفريقيا الحملة الصليبية التاسعة في المؤتمر الأفارستي".²

ب- الاحتفال بخمسينية الحماية:

ولم تمض سنة حتى شرعت سلطات الاحتلال في الإعداد للاحتفال بخمسينية بسط الحماية في تونس لتعدد إنجازاتها "الحضارية" وكان ذلك تحديا في اتجاهين: استفزاز للمشاعر الوطنية واستعراض للقوة من ناحية وابتزاز للمال العام لإقامة التظاهرة من ناحية أخرى كلفت خزينة الدولة مبالغ التونسيين في أشد الحاجة إليها في هذه الظروف العصيبة.³ وفي هذا السياق اتسعت المعارضة لإقامة الاحتفالات إذ وزعت العديد من المناشير وعلقت الملصقات في مدينة تونس ولعب طلبة جامع الزيتونة دورا هاما في نشرها وتوزيعها، ففي شهر مارس سنة 1931م عثر على معلقة ملصقة في العديد من أحياء المدينة تونس تتضمن بعد التذكير بالأضرار الناتجة عن الاحتفال بخمسينية الحماية على حساب أغلبية السكان التونسيين في وقت كانوا فيه عاجزين عن تأمين معاشهم تحذيرا من تظاهرة كهذه من شأنها أن تحدث معركة شاملة لأن "الشعب التونسي يؤثر الموت من جراء الكفاح على الموت من المجاعة والاستعباد"، وجاء في معلقة ثانية عثر عليها بتاريخ 27 أبريل 1931م داخل جامع الهواء بمدينة تونس مؤاخذا الأهالي على سيادتهم، ولا مبالاتهم وخمولهم تجاه

¹ - محي الدين القليبي: ولد سنة 1897م في تونس، درس في جامع الزيتونة، التحق بالحزب الدستوري القديم حتى عين عضوا في اللجنة التنفيذية، كان يواجه السياسة الاستعمارية وصحفها وواجه الإصلاحيين، وعارض المنشقين عن الحزب الدستوري القديم، توفي سنة 1954م. ينظر: الطاهر المناعي، المرجع السابق، ص 409.

² - حفيظ طباطبي، المرجع السابق، ص 93.

³ - نفسه، ص 94.

الحظر المترص بهم حائلة إياهم على اليقظة لزعة الهيمنة الأجنبية مع تذكيرهم بالمناسبة أن النبي محمد صل الله عليه وسلم إلى التضحية عند اللزوم، من أجل روحه وعائلته وأبنائه ووطنه¹.

ب- وسائلهم:

1/ الصحافة:

لعبت الصحافة التونسية دورا كبيرا في التعبير عن رفضها لانعقاد هذه التظاهرة الدينية بالبلاد، كما قامت بتطوير الرأي العام بنوايا هذا الاحتفال وبيان خطره على العقيدة الإسلامية وذلك من خلال ما نشرته من مقالات من ذلك ما نقلته جريدة "الوزير" مبرزة خلفيات المؤتمر "أن افتتاح مؤتمر الكاثوليكين بقرطاجنة كان يوم وقوف المسلمين بعرفات وكان انعقاده لأيام خمسة فقط أي في أيام التشريق بالحج الأكبر وهي مصادفة غريبة نادرة الوقوف لدرجة التشابه بين الحج والمؤتمر"²، إنه حقق تخطيط محكم من إدارة التنظيم وذلك بأن تجعل أيام المؤتمر هي نفسه أيام الحج، كما أبرزت جريدة "الصواب" أن الغرض الأساسي من إقامة هذا المؤتمر هو النظر في الجهود التي قامت بها الكنيسة المسيحية في عملية التنصير والبحث عن أنجع الطرق والوسائل لتحقيق ذلك في أقرب وقت، ونشرت جريدة "الصوت التونسي" في 3 ماي 1930م رسالة موجهة إلى الباي تحمل 678 توقيعاً، نذكر منها ما يلي: "أن نضرع إليكم طالبين منكم مشاركة أمتكم في إعلان عدم رضاها عن هذه الصيغة غير اللائقة التي ظهر فيها هذا المؤتمر..."³.

ونبين من خلال هذا أن ترأس الباي المؤتمر قد أثار بلبلة كبيرة لدى أهالي البلاد جميعاً وذلك نظراً للدور والمكانة التي يحتلها في نفس الشعب.

¹ - حفيظ طبابي، المرجع السابق، ص 95.

² - ريم غانمي، المرجع السابق، ص 90-91.

³ - محي الدين لقلبي، المصدر السابق، ص 38.

كما علقت الصحف التونسية على المبالغ المالية الطائلة التي وقع توفيرها للمؤتمر من ذلك ما كتبه صحيفة "الصوت التونسي": "تقديم إعانة من الخزينة بمقدار مليوني فرنك لدعم تظاهرة كاثوليكية..."¹.

2/مظاهرات الطلبة:

كان للطلبة التونسيين مواقف صارمة من هذا المؤتمر فبحكم مستواهم التعليمي والثقافي كانوا مطلعين على ما يمثله هذا الاحتفال من خطر كبير على دينهم الحنيف فقاموا بالتعبير عن احتجاجاتهم بتنظيم العديد من المظاهرات من بينها المظاهرة التي نظمها طلبة جامع الزيتونة في 3ماي 1930م بالاشتراك مع تلاميذ المعهد الصادقي والمدرسة العلوية ومعهد كارنو وقد القي القبض خلالها على 11 طالبا في ساحة باب البحر²، فقرر الطلبة في 4ماي 1930م الإضراب على الدروس مدة ثلاثة أيام في جامع الزيتونة وسائر المعاهد الثانوية مساندة لأصدقائهم الذين حجزوا عليهم واتحد جميع الطلبة على ضرورة إفشال هذا المؤتمر لأنه يمثل بالنسبة إليهم اعتداء على مقدسات وطنهم، مما دفع بالسلطة الاستعمارية إلى اتخاذ عدة إجراءات لردع المتظاهرين إلا أن ذلك لم يمنع عزيمة الطلبة التونسيين الذين واصلوا القيام بالمظاهرات والخطب الحماسية³.

5- الدفاع عن المقدسات الإسلامية :

التمثلة في أحداث الزلاج التي تعتبر انتفاضة شعبية، عندما سيطرت السلطات الفرنسية على الأملاك الموقوفة قام بردة فعل عنيفة تجسدت في انتفاضة الزلاج⁴، أين اعتبرت هذه الأرض من الأملاك الموقوفة لكن جمعية الأوقاف أوكلت أمر القيام بشؤونها

¹ - ريم غانمي، المرجع السابق، 91.

² - احمد عبد السلام، المرجع السابق، ص 81.

³ - نفسه.

⁴ - الزلاج، يعود أصل تسمية هذه المقبرة إلى محمد الزلاج القيرواني الذي وقف هذه المقبرة للمسلمين التي تقع في المدخل الجنوبي للعاصمة التونسية لها مكانة خاصة عند التونسيين نظرا لاحتوائها على "جبل التوبة". ينظر: محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج احمد، معركة الزلاج، ط1، الشركة التونسية للتوزيع، 1974م، ص 18.

إلى البلدية بحجة أنها لا تتمتع بأي مركز يضمن لها ثباتا يكفي للقيام بشؤونها، والسبب في هذه الانتفاضة هو بعض المواطنين قاموا باقتطاع الحجارة من جبل التوبة المتواجد بالمقبرة فقام نائب رئيس البلدية ومدير الأشغال وهما فرنسيا الأصل باتخاذ ذلك كذريعة، كما تقدموا بطلب إلى المحكمة العقارية المختلطة في 26 سبتمبر 1911م لتسجيل المقبرة فتم الحصول على إذن بذلك وعلى إثر سماع المواطنين بذلك الخبر ثارت ثائرتهم لأن عملية التسجيل يعني إضفاء صبغة الجنسية الفرنسية على الأرض والنظر فيها يصبح من اختصاص المحاكم الفرنسية¹.

فتدخل أعوان الشرطة وأرادوا منع المعترضين بالقوة، فآل الأمر بهم إلى مشاجرة عنيفة أمام المقبرة، وفي أثنائها ألقى المتظاهرون بالحجارة واستعمل أعوان الشرطة السلاح وأصيب بعض الأهالي بالرصاص وجرح بعضهم وحكم على بعض المتظاهرين بالإعدام وعلى فريق آخر بالسجن يوم 11 نوفمبر 1911م².

6- الدفاع عن العروبة والإسلام:

لقد أصبحت مفاهيم العروبة والإسلام والهوية الحضارية ركائز أساسية لدى النخب الزيتونية في نضالهم ضد المستعمر الفرنسي، ولقد تزعم هذا الاتجاه الشيخ الزيتوني محمد الفاضل ابن عاشور الذي كان يدعو إلى تحرير البلاد التونسية في إطار يضمن اندماجها مع العالم العربي، ملوحاً بنظره نحو المشرق، ويقول في هذا الشأن: "من يومئذ انطبعت الروح الشعبية في تونس بطابع مصوغ مادة الروح الثقافية للجامعة الزيتونة، فهي مادة الرابطة القومية الواسعة والحرص الدائم على الالتزام مع الأمم الإسلامية العربية، فأصبحت

¹ - محمد مرزوقي، المرجع السابق، ص18.

² - حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ط3، مطبعة دار الفنون تونس، تونس، ص181.

الاتجاه الثقافي يسير على واحدة وهي طلب الذاتية التونسية ومقوماتها العربية الإسلامية في الاندماج في العالم العربي"¹.

ولقد اعتمد الزيتونيون على وسائل عدة لتكريس الهوية الحضارية للبلاد التونسية والدفاع عنها من ذلك:

*النشاط الجمعياتي:

لقد كانت الجمعيات تسعى إلى بث الوعي بالانتماء للعروبة والإسلام والدفاع عن الهوية الحضارية للبلاد التونسية، ونعني بها الجمعيات الزيتونية التي كانت متعددة وسوف نقتصر في هذا البحث على ذكر أبرزها².

1- جمعية ابن منظور القفصي:

تأسست هذه الجمعية بمدينة قفصة في سنة 1945م من قبل مجموعة من الطلبة الزيتونيين، الذين كانوا يتعلمون بالعاصمة تونس، ولم تباشر هذه الجمعية نشاطها إلا في جويلية 1946م فكانت لها العديد من الأنشطة كتقديم المحاضرات في التاريخ والأدب وإنشاء مكتبة جهوية نظم أمهات الكتب العربية (كتب تاريخ، فقه، أدب..)، ولقد نظمت هذه الجمعية في شهر رمضان من سنة 1947م مجموعة من المحاضرات من ذلك:

- محاضرة بعنوان: الأخلاق والشباب وألقاها أبو القاسم كرو.

- محاضرة بعنوان: الإسلام دين التقدم والرفي ألقاها الحسن بوزيان.

هذه المحاضرات -عند تصفح محتواها- كانت تهدف إلى الدفاع عن عروبة البلاد التونسية وإسلامها ضد محاولات المسخ والتغريب، خاصة عند قراءة ما جاء في بيانها

¹ - هاني الشهيدي، جامع الزيتونة والطرح العروبي الإسلامي 1945-1947م، أنتلجنسيا، www.intelligentsia.tn، 2019/05/20م، 23:47 سا.

² - علي الزيدي، المرجع السابق، ص 187.

التأسيسي "إن جمعيتنا عازمة بحول الله على المضي قدما في طريقها دون توقف، وستعمل إلى جانب أعمالها الدورية والعادية على النهوض بالثقافة العربية الإسلامية للبلاد ومقاومتها الأمية والتغريب"¹.

2- جمعية الطلبة المسلمين بالجامع الأعظم:

تأسست هذه الجمعية بتونس العاصمة وكان لها مقرات عديدة كمقر نهج تربة الباي عدد70، ونهج عبد الوهاب عدد3، ونهج القنطرة العدد6.

ولقد كانت جمعية الطلبة المسلمين بالجامع الأعظم ذات طابع ثقافي وتواصل نشاطها إلى حدود1956م².

ومن خلال فترات نشاطها بين 1945م-1956م سعت هذه الجمعية إلى تكريس الهوية العربية الإسلامية من خلال:

- الاحتفال سنويا بالهجرة النبوية للرسول في شكل تظاهرة دينية وأدبية.

- الاحتفال بعيد العروبة بعد تأسيس جامعة الدول العربية.

- تنظيم محاضرات أدبية وتاريخية نذكر منها، محاضرة بعنوان إرادة الحياة عند أبي القاسم الشابي وألقاها الطاهر قيقه وأبرز من خلالها المعاني الوطنية والنضالية في شعر الشابي³.

¹ - علي الزيدي، المرجع السابق، ص158.

² - هاني الشهيدي، المرجع السابق، د. ص.

³ - نفسه.

3- جمعية بيت الحكمة:

هي جمعية ثقافية تأسست في سنة 1945م وتهدف إلى تكريس الهوية العربية الإسلامية للبلاد التونسية من خلال البحث عن الآثار التاريخية بتونس للتأكيد على عراقية البلاد من خلال المعالم العربية الإسلامية، ولقد سعت هذه الجمعية إلى:

- حفظ المعالم التاريخية العروبية الإسلامية.

- ضبط مصادر التاريخ والتراجع لجميع العهود والفترات العربية الإسلامية بالبلاد ووضع الفهارس لها.

- التعريف بتفاصيل التاريخ العربي-الإسلامي بالبلاد التونسية بطرق عصرية¹.

ثانيا: دور المؤسسات العلمية في مواجهة السياسة الدينية والعلمية الفرنسية:

لقد واجهت المؤسسات العلمية والفكرية كغيرها من المؤسسات الدينية الأخرى سياسة فرنسا التي ظلت تتخر في الأسس التي أقيم عليها كيان الفرد التونسي بمقوماته وعراقته، فتصدت لها بكل روح وطنية التي شملت كل النوادي الثقافية من تعليم ولغة.

1- التعبئة الشعبية:

التي تبنتها المدرسة الصادقية حيث قامت بتنشيط العديد من المظاهرات الثقافية من خلال الوسائل المتاحة مثل الصحافة والمحاضرات واللقاءات الشعبية والجمعيات الثقافية والشبانية، وقد اعتبرت المسألة أحد المطالب الرئيسية للوفد الذي زار باريس عام 1921م إذ استغرت الجماعة بزعامة الثعالبي كيف لا يتجاوز عدد التلاميذ المسلمين 10 آلاف من المليونين داخل المدارس الأوروبية رافضة كل ادعاءات سلطات الحماية².

¹ - علي الزيدي، المرجع السابق، ص 158.

² - محمد قدور، المرجع السابق، ص 272.

فكان أول مؤتمر عقده ممثلو المغرب العربي خلال الفترة 20 إلى 22 أوت 1931م بعد تحضير دام قرابة السنة وقد احتضنه مقر الخلدونية، فكانت محاوره مستهدفة الحرص على المحافظة اللغة العربية من التلاشي والبحث في شتى المشاكل المتعلقة بالقطاع التعليمي بما في ذلك التعليم المهني¹.

2- وسائل النخبة الصادقية:

أ- الإضرابات والمظاهرات:

فكان أول إضراب مدرسي بعد ما كانوا يعارضون ذلك قبل سنوات، فكان هذا ناتجا عن إدراكهم التام لاستحالة استجابة سلطات حكومة تونس لهم وهو ما فسروه استهتارا بالوزن الذي كانوا يمثلونه، مما جعلهم خارج إطار المصادقية التي كان يتمتع بها الزيتونيون.

حيث أظهر المتعلمون التونسيون منذ البداية أن غايتهم يجب أن لا تكون بأي حال من الأحوال أقل من تجديد التعليم عبر تطعيمه بمختلف العلوم الغربية².

ب- الصحافة:

لقد جعلت الصحافة التونسية لهذه الفئة من المثقفين يلجأ إليها للتعبير عن آلامها وطموحاتها مما تحمله من أهمية كبرى، وضمت هذا المجال كان ميلاد صحيفة الحاضرة، فقد شكلت مسألة التعليم عبر الإيالة إحدى ركائز محرريها، ومن أهم صحفها هي جريدة الحاضرة التي ظهرت لأول مرة سنة 2 أوت 1888م بمبادرة من علي بوشوشة وبشير صفر ومحمد السنوسي وسالم بوحاجب، ومحمد قروي (من قداماء مدرسة باردو)، فقد أسهمت

¹ - نور الدين سريب، "دور الصادقيين في حركة التحرير الوطني"، أعمال الندوة الأولى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس، عدد 1، 1981م، ص 212.

² - محمد قدور، المرجع السابق، ص 255.

الحاضرة في تكوين رأي عام تونسي متميز خاصة أنها كانت الجريدة الأسبوعية الناطقة باللسان العربي بفعل ما كانت تتناوله من قضايا عامة كالتضييق على التعليم¹.

فقد تضمنت جريدة الحاضرة بأن تكون وسيلة عمل ثمينة في التأثير على الشريحة المتعلقة في تونس، ومهما يكن في الأمر فقد ساهمت "الحاضرة في تكوين رأي عام تونسي ذي ميول إصلاحية"².

2- مواكبة الحضارة الغربية:

لقد عملت المدرسة الخلدونية على تطوير الثقافة الغربية في صفوف المتقنين التونسيين، فنمت نمو ملحوظا إلى غاية سنة 1955م وقد تم إرجاع ذلك إلى تعمدتها الالتزام بالعمل التثقيفي.

ففي سنة 1926م أقرت الخلدونية وهي الهيئة الموجودة لتكميل التعليم المقدم على مستوى الجامع الكبير، وإنشاء لجنة هدفها السعي إلى إرسال الشباب التونسي إلى عدد من المعاهد الفرنسية لمزاولة دراستهم العليا³.

وفي سنة 1947م كانت تهدف إلى تهيئة الطلبة للالتحاق بكليات التعليم العالي في جامعات الدول الشرقية (مصر والعراق) وإمداد الجامعة الزيتونية بأساتذة مساعدين خلال تنظيمها لتعليم ثانوي عصري متكافل باللغة العربية⁴.

¹ - نور الدين سريب، المرجع السابق، ص 203.

² - محمد صالح الجابري، المرجع السابق، ص 176.

³ - نور الدين سريب، المرجع السابق، ص 203.

⁴ - محمد قدور، المرجع السابق، ص 272.

2- وسائل النخبة الخلدونية:

أ- إقامة ملتقيات:

فقد برز نشاط الجمعية من خلال العديد من الملتقيات فكان أهمها:

- تخليد الذكرى الـ 1100 لوفاة المؤرخ القيرواني (أبو العرب التميمي) في سنة 1932م.

- تمجيد ذكرى تأسيس مدينة القيروان الـ 1200 في السداسي الثاني سنة 1932م.

- إحياء الذكرى الـ 600 لميلاد المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون سنة 1932م.

وقد تحولت الخلدونية خلال الثلاثينات من ق 20م إلى حصن ذي بعدين أدبي-ثقافي¹.

ب - المشاركة في المؤتمرات والمحافل:

وكان من أبرزها مؤتمر شمال إفريقيا المنعقد خلال أكتوبر سنة 1908م، التي تقدم فيها محمد الأصرم بجملة من المقترحات تضمنتها مداخلته الـ 14 وفي الوقت الذي عبر فيه عن أسفه "من أن تعليم اللغة العربية مفقود في أغلب المدارس الفرنسية" وفي مثل هذه الأجواء المضطربة لم يتأخر الأصرم في الإلحاح على السلطات الحماية باتخاذ الخطوات اللازمة لتمكين تلاميذ المدارس الابتدائية الأهلية من تعليم اللغة الفرنسية إلى جانب اللغة العربية التي تعمدت الحكومة التونسية تهميشها².

كما سعى أيضا محمد الأصرم إلى إقناع المديرية المسؤولة بإعادة تنظيم الكتاب حسب مناهج معقولة سواء من حيث البرامج أو الحجم الساعي وإلحاقها بالمدارس الفرنسية -

¹ - محمد قدور، المرجع السابق، ص 273.

² - عزيز عبد الكريم، المرجع السابق، ص 145.

العربية، حتى يتمكن التلاميذ من التعرف على مبادئ اللغة الفرنسية لبلوغ مستوى شهادة الابتدائي كما أصر على أن يكون التعليم مجانيا وإجباريا¹.

د- تكثيف الدروس والمحاضرات:

قامت النخبة المثقفة من خريجي المدرسة الخلدونية والمتخرجين من المدارس الفرنسية المطالبين بإعادة الاعتبار لتاريخهم الوطني الذي همش تحت سلطة الحماية الفرنسية، فقاموا بنشاط علمي وتربوي مكثف في شكل دروس ومحاضرات تاريخية بمقر الجمعية هذا إضافة إلى عمل صحفي هام حول تقديم وجهة النظر التونسية بشأن مسألة التعليم².

وقد ظهرت بداية القرن 20م عدة أعلام تونسية عملت في هذا الاتجاه على تنشيط الحياة الثقافية في البلاد التونسية وكان ضمن هؤلاء:

1/ محمد بلخوجة:

الذي عرف بتعلقه بالتاريخ التونسي وبسعة معارفه ومطالعاته وإسهاماته المتعددة في جريدة الحاضرة وله كتاب بعنوان "سلوك الإبريز في مسالك باريس" سنة 1900م من أشهر ما ألف³

2/ البشير صفر:

الذي درس التاريخ بالخلدونية على امتداد 10 عشرة سنوات، كان يسعى إلى استقطاب الشبان التونسيين القادمين من فرنسا بعد إتمام دراستهم مشجعا إياهم على تدعيم ثقافتهم العربية ومدعما شعورهم بعظمة ماضيهم العربي الإسلامي، وبذلك أمكن الكثير من هؤلاء

¹ - محمد قدور، المرجع السابق، ص 273

² - عزيز عبد الكريم، المرجع السابق، ص 146.

³ - موسى غفيري، المدرسة العمومية في تونس خلال الفترة الاستعمارية: صورة المستعمر وصورة التونسي في كتب التاريخ المدرسية، (رسالة لنيل شهادة الدكتوراه)، إشراف الحبيب بلعيد، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة تونس، تونس، 2011م، ص 332-333.

الالتئام مع حركة النهضة الإسلامية¹ التي كان يتزعمها، تكونت قناعاته على فكرة أن نهضة المسلمين وقدرتهم على مواجهة خصمهم عسكريا وسياسيا واقتصاديا لا يمكن أن تكون دون التآلف بين ثلاثة أقطاب أساسية وهي الدين واللغة العربية والعلوم العصرية.

أما من حيث تحصيله العلمي، فتميز البشير صفر بسعة اطلاعه وثراء ثقافته وتنوعها وغزارة إنتاجه العلمي إذ ألف عدة كتب باللغتين الفرنسية والعربية إضافة إلى تنوع التقارير والمحاضرات وعديد المقالات الصحفية التي زادت عن 70 السبعين مقالا، ومن خصائص محاضراته التاريخية أنها تتراوح بين المسائل المتعلقة بالتاريخ التونسي والأوروبي وذات قيمة تكوينية كبيرة مبنية على منهج علمي عصري، ولعل هذا ما يفسر الصدى الواسع لدروسه التي شهدت إقبالا جماهيريا كبيرا بحيث بلغ عدد التلاميذ الذين يتابعونها في السنة الدراسية سنة 1930-1931م مثلا 107 تلميذا².

3/حسن حسني عبد الوهاب:

عرف بولعه بالدراسات التاريخية والمباحث الأثرية، فهو الذي خلف البشير صفر في تدريس التاريخ بالخلدونية وذلك من سنة 1910م إلى سنة 1924م ثم درس بالمدرسة العليا للغة والآداب العربية "سوق العطارين" بين سنتي 1913 و1924م، واتصل بمراكز البحث التاريخي والنشر العلمي في الشرق والغرب، حرر باللغة العربية في مجلات علمية شهيرة وكثير من المجلات والنشرات التي يقوم عليها معاهد الاستشراف ومجامع الآثار في أوروبا، شارك في عديد المؤتمرات الاستشرافية وكانت مواقفه على درجة كبيرة من الجرأة والاعتزاز بالثقافة العربية الإسلامية، خصوصا أنه كان من الرعيل الأول من المثقفين الذين أكدوا على مدى خطر التعليم الفرنسي على التونسيين³.

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، المصدر السابق، ص 99.

² - موسي غفيري، المرجع السابق، ص 333.

³ - نفسه، ص 334.

3- النهوض بالتعليم العربي:

حيث كانت جمعية قداماء الصادقية ترمي إلى تحقيق النهضة الأدبية والفكرية والالتحاق بركب العصرية، والتي كان الهدف منها هو محاولة ربط ماضي المدرسة بحاضرها في ظل التطورات التي أفرزتها اليوميات التونسية تحت إدارة الحماية وكانت أعمدها الثلاثة (الزماله، الاتحاد، التضامن)، وكانت تدعو إلى إنشاء مكتبة وإلقاء محاضرات، ويضاف إلى ذلك البحث عن مقر يجمع القداماء بالجدد من قداماء الصادقية¹.

فقد حاولت الجمعية أن تكون روحها الثقافية غريبة غايتها وطنية رغم نسبة باش حامبة والاكتماء بتنقيف المجتمع التونسي وإنما تجاوز ذلك إلى الحد الذي يطالب فيه من الفرنسيين المجيء للمؤسسة لتعليم اللغة العربية فكانت نسبة التجاوب ضعيفة جدا إلا أن هذا لم يمنعهم من مواصلة نشاطهم².

فكانت تهدف أيضا إلى نشر وتبسيط العلوم العصرية الضرورية في الوسط التونسي، حيث اتجه بشير صفر وزملاؤه بشكل مباشر إلى مختلف شرائح الشعب التونسي فنظموا له محاضرات باللغة العربية في كافة أنحاء العاصمة للتعريف على مسائل علمية تطبيقية.

وكانت مسألة تعليم الفتاة المسلمة من بين انشغالات قداماء الصادقية، فكانت البداية بالاهتمام بالرائدات الأوائل لهذه المدارس³.

فبدأ أول نزاع بين الشباب الصادقي وحكومة الحماية حين قدم بشير صفر على تقديم عريضة تضمنت جملة من المطالب التونسية التي رأى ضرورة الإسراع في اتخاذ إجراءات

¹ - محمد قدور، المرجع السابق، ص 266.

² - أحمد خالد، المرجع السابق، ص 118.

³ - نفسه.

لتحقيقها وكانت الرسالة موجهة إلى المقيم العام ستيفان بيشون "Stephan pechon" وقد تضمنت العمل على نشر التعليم المهني، التجاري والفلاحي بين التونسيين¹.

2- وسائل نخبة قداماء الصادقية:

ومن بين الوسائل التي انتهجتها الجمعية انطلاقاً من الشعارات التي رفعها الساهرون على الجمعية:

*من أجل الوحدة: كان التفكير بداية في توفير مقر للجمعية يمكن الأعضاء من اللقاء.

*من أجل التعاضد: عمدت الجمعية إلى تقديم مختلف أشكال المساعدة.

*من أجل التحفيز: سعت الجمعية إلى توزيع الجوائز على أنجب التلاميذ وإيجاد منحا لمساعدة المتفوقين منهم على الاستمرار في مزاولة الدراسة إلى ابعدها ما تتيحها الإمكانيات.

*من أجل تعميم المعرفة: بإنشاء مكتبة والعمل على انجاز المحاضرات والبعث بنشرية تكون لسان حال لها².

*إنشاء جمعية الشبيبة المدرسية:

تأسست سنة 1932م من أجل لم شتات التونسيين، وربط أواصر الصداقة بين تلامذة مختلف المؤسسات التعليمية، وتنويع تربية الشبان عن طريق الرحلات وتشجيعهم على الإنتاج الفني والأدبي بواسطة تنظيم العروض والمسابقات، فقد تأسست بنادي جمعية قداماء

¹ - محمد قدور المرجع السابق، ص 267.

² - نفسه، ص 267-268.

تلامذة المدرسة الصادقية، ثم انتخبت الصادق المقدم (مدرسي) رئيساً، ومحمد الطيب العنابي (زيتوني) كاتباً عاماً¹.

وقد برزت البيئة المدرسية بنشاطاتها في عديد من المناسبات التي جمعت طلبة جامع الزيتونة بتلامذة المدارس الحكومية، ولعل محاضرات علي البلهوان كانت خير مثال على ذلك، ونذكر في هذا السياق محاضرة "تصيب الشبيبة في الكفاح" التي منعت السلطات الفرنسية إلقاءها يوم 12 مارس 1938م بقاعة سينما "فارييتي"، وتم إلقاءها في مقر الحزب بنهج التريبونال، كما ساهم الشيخ محمد الشاذلي النيفر مثلاً بإلقاء عديد المحاضرات².

كانت الشبيبة المدرسية عبارة عن روافد شبابية تحاول نشر الوعي الوطني، وتمثل ذلك خلال المعركة الحاسمة ضد الاستعمار الفرنسي في الإضراب الذي شنّه المدرسون والزيتونيون في كل المعاهد التونسية من 19 مارس إلى 9 أبريل 1952م أثناء معركة التحرير³.

وفي بداية الخمسينات قامت الشبيبة المدرسية بدور أساسي في نشر الثقافة التونسية، كما شاركت في أعمال مقاومة الاحتلال الفرنسي لتحقيق الاستقلال وذلك بتعبئة الشباب المدرسي والطلابي من خلال المشاركة في الإضرابات والتظاهرات والأنشطة⁴.

4- مواجهة سياسة الفرنسية:

يعتبر التعليم إحدى الركائز الأساسية التي بنى عليها زعماء الإصلاح دعوتهم وتواصل الاهتمام به في مطلع القرن العشرين من قبل الشباب التونسي الذي كان يسميهم هشام بوقمرة "المدرسين" ذي التكوين الفرنسي، ومن قبل الزيتونيين فقد آمنت الفئات بحق التونسيين

¹ - عزيز عبد الكريم، المرجع السابق، ص 209.

² - علي الزيدي، المرجع السابق، ص ص 147-149.

³ - عزيز عبد الكريم، المرجع السابق، ص 2010.

⁴ - علي الزيدي، المرجع السابق، ص ص 150-151.

في التعليم عصري مناسب وفتح المدارس أمامهم وتوفير ظروف النجاح لهم، لكنهم اختلفوا في محتوى التعليم الذي سيقدم إليهم وفي اللغة التي يجب أن تدرس بها البرامج، فبرز اتجاهان اتجاهاً يقر بتدريس اللغة العربية في المدارس، واتجاه يقر بمشاركة الفرنسيين في اللغة الفرنسية أي تدريسها في المدارس التونسية¹.

أ- تعليم عربي محض:

فقد بادر خير الله بن مصطفى بإنشاء الكتاتيب العصرية وهي مدارس ابتدائية أهلية متطورة تعتمد اللغة العربية في التدريس وكانت هذه التجربة بديلاً معتبراً لأنها مستجيبة لرغبات قسم واسع من الأهالي وخاصة في المناطق الداخلية المحرومة من المدارس، وكانت بالتالي تهدد بالقضاء على المدارس الفرنسية العربية التي كانت حجر الزاوية في المدارس التونسية.

كما أيدهم في ذلك المعمرون بكل حماس لأن غايتهم كانت ترمي إلى استبقاء الطفل في مستوى الكتاب القديم، كما أيدهم الإدارة الفرنسية التي كانت تسعى أكثر فأكثر إلى إقصاء التونسيين عن الثقافة الفرنسية².

وبضغط من الصحافة العربية على جماعة التونسيين وبعثهم بالجهل والخيانة، تراجعت هذه الأخيرة واستحسنّت الكتاتيب العصرية بصورة انتقالية ريثما تتوفر المدارس العربية الفرنسية، فعارض عثمان الكعاك تعليم الفتيات اللغة الفرنسية على حساب اللغة العربية لفرط تعلق المسلم بتقاليده وقوميته، وهي جميعاً عماد شخصيته والفضل في هذا للام.

كما دافع عن هذا الموقف عبد الجليل الزاوش الذي كان يرى وجوب تعليم الفتيات اللغة العربية، ولئن رضي بتدريس لغة أجنبية فإنه يستحسن أن تكون الفرنسية وذلك بصورة

¹ - محمد صالح الجابري، المرجع السابق، ص 323.

² - الطاهر المناعي، المرجع السابق، ص 323-324.

تكميلية ويفضل عليها الأخلاق والآداب والتاريخ، وبهذا الموقف الغريب كان جماعة الشباب التونسي في هذا الاتجاه محافظين أشد المحافظة¹.

ب- المساواة في التعليم-تعليم فرنسي

فقد نشطت جمعية القدماء الصادقية في تقديم المطالب بإصلاح التعليم في الصادقية والزيتونة معا، وكان من نتائج ذلك أن فتح في وجه الصادقين باب البكالوريا، ثم أبواب بعض الكليات في الجامعات الفرنسية وكلية الحقوق خاصة، وبذلك لم تعد الصادقية مقتصرة على تخريج الموظفين والمترجمين².

ولم تكن جمعية قدماء الصادقية رافضة للحماية الفرنسية والتعاون مع فرنسا بل كانت حزبا إصلاحيا اتخذ شعاره المشاركة، أي مشاركة التونسيين والأجانب في تونس في المناصب والامتيازات، غير أن هذا لا يعني أنهم لم يكونوا وطنيين، كلا فقد كانوا متشبعين بأفكار خير الدين التحديثية معتقدين بأن الحماية ستمكنهم من تحقيق الحداثة التي كانوا ينشدونها³.

لقد كانوا هم المؤسسين للحركة الوطنية التونسية، ولكن إستراتيجيتهم كانت تتبنى فكرة التطور التدريجي، ومن هنا كان تركيزهم على المطالب الإصلاحية، خصوصا تلك التي كانت من المفروض أن تقوم بها الإدارة الفرنسية في إطار ما ينص عليه عقد الحماية⁴.

فقد كان شعار الصادقين مستوحى من النموذج الفرنسي وامتخذا من شعار المشاركة وسيلة لتحقيقه، فكانت عبارة يرددونها المدرسون وهي (التثقيف بالفرنسية وتعليم بالعربية)، فكتب باش حاميه سلسلة مقالات عام 1909م يشرح فيها نظام المدرسة الفرنسية العربية التي كانت

¹ - الطاهر المناعي، المرجع السابق، ص325.

² - Ahmed Kassab, Ahmed Ounaïes, **Histoire générale de la Tunisie, l'époque contemporaine (1881-1956)**, Sud Editions, Tunis, Tome IV, 2010, pp216-2017.

³ - الطاهر المناعي، المرجع السابق، ص325.

⁴ - محمد صالح الجابري، المرجع السابق، ص72.

النخبة التونسية العصرية بزعامته تطالب بجعلها المدرسة التونسية الوحيدة، ويشرح باش حامبه مبدأ المشاركة وشعار (التثقيف بالفرنسية والتعليم بالعربية)¹ فيقول "إنه بكل بساطة إمكانية دخول الأهالي إلى كل المدارس الابتدائية الحكومية في نفس الظروف المتاحة للأجانب... لقد أسست مدارس في تونس وخصصت لكل ما عدا للمسلمين، فهذه المدارس المريحة بمبانيها الجديدة والتي انفق عليها من أموال الدولة التونسية مفتوحة للفرنسيين والإيطاليين والمالطيين واليهود التونسيين وليس أبداً للأهالي المسلمين"، ويقول أيضاً: "أن على الطفل الأهلي أن يكون مزوداً بنفس زاد المعارف الذي يتسع له صغار الفرنسيين والإيطاليين الذين سيعيش معهم فيما بعد، وأن تقديم تعليم غير متساوي لأبناء الأهالي وأبناء الأوروبيين هو ظلم صارخ وأن إعطاء تعليم مختلف لأولئك عن هؤلاء يعني زيادة توسيع الهوة التي تفرق بينهم، يجب بالعكس توجيه كافة الجهود لردمها"².

ويضيف قائلاً: "ولهذا السبب نرفض بنفس القوة اقتراح أولئك الذين يريدون أن يخصصوا التونسيين تعليم خاص مختزل، واقتراح أولئك الذين ما بين مواطني متحالفين مع العروبيين يدعو إلى تعليم ابتدائي عربي محض، نحن نطالب إذن بأن يطبق بكل دقة في المدرسة الفرنسية العربية برنامج المدارس الابتدائية العلمانية الفرنسية بكاملها"³.

كان باش حامبه ينطق باسم غالبية النخبة التونسية العصرية التي تريد أن تكون المدرسة الفرنسية العربية المدرسة الوحيدة التي يتعلم فيها أبناء تونس، فكان ضد فكرة الكتاب العصري أو المدرسة الابتدائية الحديثة المعربة التي كان قد أنشأها خير الله بن مصطفى رئيس جمعية الصادقيين ذي الميول العروبية، كما كان باش حامبه ضد الإبقاء على الكتابات القرآنية التقليدية، عندما اتهمه خصومه من الزيتونيين خاصة أنه يريد القضاء على

¹ - محمد صالح الجابري، المرجع السابق، ص 75.

² - الطاهر المناعي، المرجع السابق، ص 325.

³ - نفسه، ص 326.

اللغة العربية نفي ذلك قائلا: "إن دراسة اللغة العربية ضرورية للتونسي حتى لا يفقد فرديته، ولكن التطور الثقافي للتونسيين يجب لكي يتم سريعا أن يكون بواسطة لغة أوروبية"¹.

ج- وسائلها:

1/زيادة عدد المدارس:

كما شهدت ما بين الحربين البلاد التونسية تطورا كبيرا في مجال التعليم العصري وذلك بزيادة عدد المدارس الابتدائية والثانوية وأصبحت الإيالة تضم أكثر من 418مدرسة ابتدائية سنة 1926م منها 253 فرنسية و143عربية فرنسية و22مدرسة للبنات إلى جانب 15 معهدا ثانويا².

وفي سنة 1930م أصبح عدد المدارس الحكومية حوالي470مدرسة، فازداد عدد التلاميذ المسلمين على ما كان عليه قبل الحرب العالمية الأولى، وكان الإقبال على التعليم الابتدائي كبيرا واستطاع التونسيون أن يقتلعوا أماكن عديدة في التعليم من الأهالي لا يساوي سنة 1930م سوى6، 66% من مجموع من هم في سن الدراسة فإن اهتمام الأهالي بالتعليم وتمكنت الفئات المتوسطة والفقيرة بدرجات متفاوتة من إرسال أبنائها إلى الكتاتيب العصرية والمدارس الفرنسية-العربية، مما يثبت حرص التونسيين على التعليم ونيل نصيب المعرفة لمنافسة الأجانب، كما أكدت النخبة التونسية على إجبارية التعليم بالنسبة للذكور وتدريس البرامج باللغة العربية وتعليم اللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية³.

ومما يلاحظ أن العناية بتعريب التعليم والتفتح على اللغات الأجنبية وإرسال الطلبة إلى الجامعات الأوروبية تدل على حسن بصيرة التونسيين وتجدر نزعتهم القومية وتصورهم

¹ - محمد صالح الجابري، المرجع السابق، ص75.

² - الطاهر المناعي، المرجع السابق، ص327.

³ - احمد سولم، "التعليم الاستعماري في تونس خلال الحماية الفرنسية 1881-1956"، دورية كان التاريخية، الكويت، العدد34، ديسمبر2016م، ص20.

لمستقبل بلادهم، وهذا التوجه الوطني والقومي في السياسة التعليمية أبرزته أيضا جريدة "البرهان" التي طالب أحد محرريها "أن يكون التعليم الذي يلقي لأبنائنا ملائما لأخلاقنا القومية وأن يكون فيه للغتنا الشريفة الحظ الأوفر حفظا لنزعتنا وحراسة لكياننا واستبقاء لتاريخنا وتذكرا لمجدنا السالف ومدينتنا القديمة"¹.

5- مواجهة سياسة التغريب:

بما أن التعليم يعتبر وسيلة لنشر الوعي ونافذة على التاريخ القومي وأداته العربية فإن حركة الشباب التونسي التي تأسست سنة 1907م، تعتبر حركة المقاومة الثقافية التي نهض بأعبائها الرعيل الأول من المصلحين، ولنشأة حركة الشباب التونسي طوران أولهما مرحلة النضوج والتكوين والتوافق، طور الإصلاح الثقافي والاجتماعي، وثانيهما مرحلة الإعلان عن المبادئ والكفاح من أجل تحقيقها وهي فترة تمتد من 1906 إلى 1912م².

فكانت تدعو إلى الكفاح الثقافي الذي اتخذته ثلة من المثقفين المخضرمين من خريجي الزيتونة والصادقية ميدان الكفاح الثقافي وقد تجلّى نشاطهم بالخصوص في مقاومة مظاهر التخلف الاجتماعي والجمود الثقافي بالدعوة لتحديث المؤسسات التربوية والدفاع عن الهوية التونسية³.

فركزت حركة الشباب التونسي نشاطها على التعليم بكل أبعاده الوطنية والقومية، حتى لا يكون الطفل التونسي آلة الاستعمار الطيبة فلا يسمح له بأن ينظر إلى أبعد من مستواه، لهذا أدركت حركة الشباب التونسي هذه الحقيقة فسعت متأثرة بآراء المصلحين في المشرق والمغرب إلى مواجهة هذه الموجة من التغريب، وذلك بتجديد التعليم ومناهجه وتطعيمه بالعلوم الأخرى، وهذا ما كان ضمن المدرسة الخلدونية وجمعية القدياء الصادقية حيث

¹ - الطاهر المناعي، المرجع السابق، ص 327.

² - نفسه.

³ - Nouri Boudali, **protectorat et indépendance**, imprimerie Al asria, Tunis, 1992, p 63.

نظمت هذه الأخيرة عدة محاضرات سيرها مشايخ من جامع الزيتونة وأساتذة جامعيون قدموا من فرنسا لبث الوعي بين الناس¹.

وكان من العناصر الأساسية التي اعتمدها حركة الشباب التونسي في مواجهة الغزو الثقافي للبلاد بتدريس التاريخ واللغة العربية ولم يعد التاريخ عند هذه الجماعة مجرد سرد للأحداث، بل هو شعور بالانتماء إلى حضارة عريقة وتأكيد ربط الحاضر بالماضي وبالتالي الوقوف أمام محاولات الإدارة الفرنسية في طمس مجد الحضارة العربية الإسلامية فيقول محمد الفاضل بن عاشور في هذا السياق: "كانت الدراسات التاريخية إلى جنب دروس التاريخ تحرك العناية بمباحث التاريخ والحرص على إحياء الآثار التونسية والتنويه بالماضي من عظماء ورجال التعليم والأدب ففتحت الصحف أعمدها لنشر المقالات عن المعالم الأثرية الإسلامية وأعلام التاريخ الإسلامي"².

6- مقاومتها الأدبية والفكرية:

كما امتازت فترة الثلاثينات 1929-1939م ببروز شخصيات كانت لها القدرة على التأثير في التونسيين الذين يسمون جماعة مقهى تحت السور في الحلفاوين بالعاصمة والتي كانت تؤمه ثلة من الأدباء الذين اعتزلوا مقهى باب منار وجماعة شعراء الفصحى³، وكان من بينهم أبو القاسم الشابي⁴ الذي استطاع بقصائده الشعرية الوطنية تحميس التونسيين بلغة سليمة وأسلوب شيق، فحثهم من خلالها على المقاومة ومواجهة المستعمر مستنفرًا عزمهم وهمهم خاصة من خلال:

¹ - الطاهر المناعي، المرجع السابق، ص 115-116.

² - نفسه، ص 117.

³ - احمد خالد، المرجع السابق، ص 119.

⁴ - أبو القاسم الشابي: هو أبو القاسم بن الشيخ محمد بن أبي القاسم، من أسرة الشابين الماجدة والمشهورة بوطن الجريد التونسي، ولد أبو القاسم الشابي بمدينة توزر، درس بجامع الزيتونة، تفتحت قريحته الشعرية باكرا فاقبل على مطلة الكتب والصحف الواردة من المشرق والمغرب، فجمع ديوانه "أغاني الحياة"، توفي سنة 1934م. ينظر: الطاهر المناعي، المرجع السابق، ص 402-403.

1/القصائد الشعرية:

التي كان أهمها قصيدة "إرادة الحياة" التي كان مطلعها يمنح للشعب إذا أراد القدرة على تغيير ملامح القدر، ويقصد الشابي هنا بالقدر الاستعمار الفرنسي، على خلاف ما ذهب إليه البعض من رجال الدين المتزمتين، الذين كفروا الشابي واعتبروا أن القدر من صنع الله وليس لأحد تغييره غيره¹.

فقد اتجه الشابي بقصائده إلى نخبة من التونسيين بلغت حدا من الوعي الوطني ولديها القدرة على القراءة والكتابة، لذلك فإن الشعر ما زال له تأثيره على التونسيين وهو إطارهم الجامع، وقد أحسن الشابي توظيف هذا الإطار وتطويعه لإيقاظ الحس الوطني لدى التونسيين.

لهذا أصبح الشعر الشعبي القناة الأكثر اعتمادا من قبل التونسيين لنشر مبادئ المقاومة والتشجيع على مواجهة الإدارة الاستعمارية فكان هذا الشعر الشعبي يكتبه إما الفاعلون أنفسهم أو يكتب تخليدا لأفعالهم².

2/العمل المسرحي:

إن بروز فرقة السعادة يعكس تبلور المسرح في الحياة التونسية، حيث كانت مواضيعها تحارب الاستبداد الاستعماري ووجود المحتل في البلاد، حيث قدمت العديد من المسرحيات عبر أنحاء المدن التونسية وخصوصا العاصمة ومن أشهر عروضها "تكبة الأندلس"، ورواية "صلاح الدين"، ورواية "طارق بن زياد"، التي منعت عرضها السلطات الفرنسية لما تتضمنه من أفكار تمجد الحرية وترفض العبودية والاستسلام³.

¹ - مجموعة من الباحثين، تاريخ الأدب التونسي الحديث والمعاصر، ط1، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون(بيت الحكمة)، تونس، 1993م، ص ص42-43.

² - الأزهر الصخراوي، المرجع السابق، ص ص158-159.

³ - أحمد توفيق المدني، المصدر السابق، ص ص399-400.

3/الإذاعة:

كان المذيع في تونس معروفا منذ شيوعه ولكنه لم يكن رائجا في العائلات والنوادي، إلا عند عدد قليل من العائلات المترفة التي تستمتع بالموسيقى الغربية وحديث اللغات الأجنبية.

بتظافر العديد من الأسباب، بدأت تروج في الأوساط الإدارية بتونس فكرة إنشاء محطة للإذاعة، تنازع محطة القاهرة ومحطة إيطاليا، فأسرع رجال من أهل المال بإنشاء محطات صغيرة حرة، فأنشئت سنة 1937م محطة بتونس، وأخرى ببنزرت وثالثة بصفاقس، ونشطت الإذاعة باللغة العربية واستدعت الأدباء والمفكرين ورجال الفن للإذاعة والاشتراك في الإشراف والإدارة، ووضعت بتلك المناسبة مشاكل دينية متعلقة بحياة الإذاعة استتبع صدور تحريريات فقهية اشترك فيها كبار العلماء واشتغلت بها الصحف والمجلات العلمية، كمسألة قراءة القرآن في الراديو، ومسألة الاعتماد على خبر الصوم والفطر بطريق الإذاعة.

فتم إنشاء محطة للإذاعة التونسية بما لقيت تلك التجارب الفردي من النجاح، فتم إنشاؤها سنة 1938م وأقبل الأدباء والشعراء والباحثون على إلقاء أحاديثهم في الإذاعة فكانت برامجها الثقافية بالغة أقصى حدود الرقي¹.

4/تكثيف النشاط الصحفي:

تعتبر فترة ما بين الحربين هي من أرقى فترات الصحافة التونسية، إذ ظهرت بها عشرات الجرائد منها ما استأنف الصدور بعد رفع الحصار على الصحف والصحفيين على اختلاف مذاهبها الفكرية واتجاهاتها الحزبية²، فقد تم تسجيل صدور 70 عنوانا صحفيا باللغة العربية أو باللغة الفرنسية ما بين 1929-1939م و50 عنوانا صحفيا ما بين 1939-

¹ - محمد الفاضل ابن عاشور، المصدر السابق، ص238.

² - الطاهر المناعي، المرجع السابق، ص335.

1949م¹، فووقت جميعها تقريبا إلى صف القضايا الوطنية، فقد استطاعت الصحافة الوطنية بفضل إخلاص أبنائها وتضامنهم كسب ثقة القراء والتأثير فيهم إعلاميا وثقافيا كما استطاعت أن ترد كيد الصحف الاستعمارية وتكشف حقيقة نواياها وبطلان ادعاءاتها في العديد من المناسبات مثل حادثة استقالة الباي سنة 1922م، والمؤتمر الافارستي سنة 1930م، وحوادث التجنيس سنة 1933م، وحوادث 9 أبريل 1938².

كما ساندت أغلب هذه الصحف جماعة العمل التونسي وعملت على نشر أخبار هذا التنظيم السياسي حيث استفاد من هذا العمل الصحفي الحزب الدستوري الحر في مرحلته الحاسمة من تاريخية وهي مرحلة ما بعد الانشقاق وبروز الحزب الجديد³.

5/ دور المجلات الأدبية :

حيث قامت المجلات الأدبية التونسية بدورين بارزين: الأول دعمت به مجهود الجرائد الوطنية عموما لتأصيل كيان المجتمع التونسي والدفاع عن مقوماته من وطن ولغة وتاريخ ودين وأخلاق... والثاني خلقت به نهضة فكرية وأدبية وفنية متطورة⁴.
ومن أهم المجلات التي قدمت رصيد ثقافي هي مجلة العالم الأدبي والمجلة الزيتونية ومجلة مباحث التي كان روادها من المؤسسات الدينية والعلمية مثل محمد الفاضل بن عاشور وعثمان الكعاك⁵.

1 - الأزهر الصخراوي، المرجع السابق، ص 154.

2 - الطاهر المناعي، المرجع السابق، ص ص 336-337.

3 - الأزهر الصخراوي، المرجع السابق، ص 154.

4 - الطاهر المناعي، المرجع السابق، ص 337.

5 - عثمان الكعاك: ولد يوم 15 أكتوبر 1903م درس بالمدرسة الصادقية وتحصل على شهادة الترجمة من معهد الآداب واللغة العربية، واصل تعليمه بجامعة باريس، شارك بمقالات عدة في الميدان الفكري والثقافي، اشتغل موظفا بإذاعة تونس سنة 1938م، ثم مكثيا بالمكتبة العمومية حتى سنة 1956م، توفي بالجزائر يوم 16 جويلية 1976م. ينظر: الطاهر المناعي، المرجع السابق، ص 410.

حيث اهتمت على سبيل المثال المجلة الزيتونية¹ والتي كونتها نخبة من أساتذة الزيتونة فقد اهتمت بالعلوم الإسلامية والتاريخ التونسي وعملت على توجيه البحث العلمي إلى المنهج الديني وإشاعة روح الجامعة الزيتونية التي هي روح المحافظة على الدين وتقوية الشعور بوحدة العالم الإسلامي واعتبار العروبة والإسلام أصلاً ذاتية الوطن التونسي².

كما اهتمت مجلة مباحث بالتراث فقد تكونت من ثلة من المدرسين أصحاب الثقافة المزدوجة وخريجي المعاهد الفرنسية، ولكنهم كانوا متشبعين بروح وطنية عالية³.

خلاصة الفصل:

لقد لعبت المؤسسات الدينية والعلمية دوراً كبيراً في التصدي للسياسة الفرنسية الهادفة إلى محو الشخصية الوطنية، التي دافعت عن أهم القضايا التي اجتاحت البلاد التونسية منذ فرض الحماية الفرنسية والتي كان أبرزها إصلاح التعليم الزيتوني بمختلف مناهجه وبرامجه، وكذلك التصدي لسياسة التنصير التي تهدف من ورائها إحياء المسيحية، كما واجهت كل الأساليب الاستفزازية التي مست مشاعر الشعب التونسي التي تمثلها تمثال الكاردينال لافيغري والاحتفال بالمؤتمر الأفارستي والاحتفال بخمسينية الحماية، كما واجهت سياسة التجنيس التي أعطتها السلطات الفرنسية أهمية كبرى بسبب تغلب العنصر الفرنسي على العنصر الإيطالي معتمدة في ذلك على جملة من القوانين والمراسيم لتنظيم عملية التجنيس.

كما تصدت المؤسسات العلمية بكل فروعها جامع الزيتونة والمدرسة الصادقية والجمعية الخلدونية وجمعية قداماء الصادقية والنوادي الفكرية والأدبية ومقاومتها للسياسة

¹ - مجلة الزيتونة: هي مجلة علمية أدبية وأخلاقية، كانت تصدر عن هيئة مدرسي جامع الزيتونة المعمور بتونس وتختص بكل ما له علاقة بإحياء التراث والعلوم الإسلامية والعربية، هدفها الرئيسي إصلاح المجتمع دينياً وأخلاقياً وثقافياً، التي كان صاحبها محمد الشاذلي بن القاضي ورئيس تحريرها محمد المختار بن محمود. ينظر: محمد المختار بن محمود، "المقدمة"، المجلة الزيتونية، مج1، 1936م، ج1، صص2-6.

² - محمد الفاضل بن عاشور، المصدر السابق، ص138.

³ - الطاهر المناعي، المرجع السابق، ص339.

الثقافية الفرنسية خاصة السياسة التعليمية، منتهجة في ذلك العديد من الوسائل والطرق لمقاومتها وكذلك للتعبئة الشعبية للنهوض معها لمواجهة السلطة الاستعمارية منها الإضرابات الطلابية والاحتجاجات، والنشاط الصحفي والنشاط الجمعياتي الذي كان له دورا كبيرا في نشر الوعي وكانت روافد هامة في غرس الروح الوطنية لدى الشباب للوقوف في وجه الاحتلال ومقاومة برامج الهدامة.

كما كان للعمل الأدبي والفكري الذي كونه ثلة من المثقفين دورا بارزا في مقاومة السياسة الثقافية الفرنسية وذلك من خلال الأبيات الشعرية والعمل المسرحي والإذاعة والمجلات الأدبية، لذا نشطوا لفرض الثقافة المحلية بكل ألوانها وجعلوها بديلا إيجابيا يحفظ لهم خصوصياتهم باعتبارهم تونسيين وهويتهم العربية الإسلامية.

خاتمة

من خلال دراستي لموضوع هذه المذكرة المعنونة بالمؤسسات الدينية والعلمية بتونس ودورها في مواجهة السياسة الدينية الثقافية الفرنسية (1881-1956م)، استخلصت جملة من النتائج نذكر منها:

- لقد ازدهرت الحياة الدينية والعلمية في تونس قبل وبعد الحماية الفرنسية وذلك بفضل مؤسساتها الدينية والعلمية القائمة على ذلك، والتي كان لها الفضل في إدخال العديد من الإصلاحات عليها بماوابة التطورات الحديثة والعصرية.

- واقع المؤسسات الدينية والعلمية قبل فرض الحماية كان مزدهرا نوعا ما وخاصة في المجال الديني حيث حضي جامع الزيتونة بالمكانة المرموقة في النهوض بالحياة الثقافية بالبلاد التونسية وذلك لقيامها بالدور الديني والتعليم وبمختلف برامج وعلومه العقلية و النقلية.

- تعدد المؤسسات العلمية في تونس قبل فرض الحماية يعد دليلاً على اهتمامها بالتعليم بمختلف مؤسساته سواءً كان ذلك تعليم تقليدياً أو عصرياً أو أجنبياً.

- استمرار نشاط المؤسسات الدينية ودورها التعليمي والديني حتى بعد فرض الحماية الفرنسية وإدخال إصلاحات جديدة على مناهجها، مثل جامع الزيتونة الذي كان من بين المحافظين على التعليم الإسلامي دون إدخال مناهج جديدة وعصرية تدعم المناهج العقيمة التي كان يدرسها، فأصبح يطالب بالحكومة الفرنسية بإدخال إصلاحات جديدة لبرامجه الدراسية مع المحافظة على الهوية الوطنية.

- رغم الدور الذي لعبته مؤسسات الزوايا والطرق الصوفية في جميع الميادين السياسية والتربوية والاجتماعية، إلا أنه لم يسجل لها دور في مواجهة الحماية الفرنسية وذلك حسب ما تراه يخدم مصالحها.

- كان دور المدرسة الصادقية هو إدخال العلوم العصرية، وكذا تغطية النقص في برامج التعليم بجامع الزيتونة، بما كانت تقدمه من معارف جيدة وعلوم حديثة ولغات جديدة، كما لقت جمعية قداماء الصادقية العلوم العصرية لنخبة برجوازية قليلة .

- إن سبب تنوع السياسة الاستعمارية في تونس هو نتيجة، معاهدتي باردو والمرسى التي كرست الهيمنة الاستعمارية والاستحواذ على أهم ثرواتها وتحطيم كل قيمها الدينية متبنية في ذلك العديد من الأنشطة الدينية فمن ظاهرة التنصير إلى إقامة ثمثال الكردينال لافيغري إلى تنظيم المؤتمر الافخارستي إلى دفن المتجنسين في المقابر الإسلامية، كل هذه الأنشطة كانت تهدف إلى غاية واحدة، وهي تنصير الشعب التونسي وإخراجه من دينه الإسلامي، لكنها باءت بالفشل والإحباط نظرًا لردود الفعل العنيفة التي أظهرها خريجي المؤسسات الدينية والعلمية، وغيرتهم على دينهم واعتزازهم بعقيدهم مما جعلهم يرفضون كل بديل يطرح أمامهم.

- إن السياسة الثقافية التي انتهجتها الإدارة الاستعمارية منذ فرض حمايتها سنة 1881م تهدف إلى محو الروح الوطنية والقومية ومحاولة دمج الحضارة الإسلامية بالحضارة الغربية بالمساس بكل مقدساتها بوسائل مختلفة من تجنيس وفرنسة ومحو للغة العربية في كافة المؤسسات التعليمية وتعويضها باللغة الفرنسية .

- بفضل السياسة التي فرضتها السلطة الاستعمارية أحدثت الصلح بين جامع الزيتونة والمدرسة الصادقية بعد أن كان كل واحد في اتجاه يدعو إلى التجديد واتجاه يدعو إلى المحافظة، فأصبح اليد فاليد للنهوض لرفض السياسة الاستعمارية .

- كانت مؤسسة جامع الزيتونة من أبرز المقاومين لسلطة الاستعمارية على عكس باقي المؤسسات الأخرى التي ترفض المواجهة المباشرة.

- عمل شيوخ وخريجي جامع الزيتونة على بذل جهودهم لمقاومة السياسة الدينية بكل الوسائل والطرق سواء بالمظاهرات أو بالاحتجاجات أو بالإضرابات تقديم معلقات فتاوى لتعبير عن رفضهم هاته السياسة الجائرة والمحافظة على الدين الإسلامي.

-بذل النخبة المثقفة وخريجي جامع الزيتونة جهودهم للتصدي لسياسة التعليم الفرنسية من ذلك دعم للغة العربية باعتبارها لغة القرآن، والوسيلة الوحيدة التي يمكن امام الاستعمار واللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية.

- عمل هؤلاء النخبة المثقفة على توعية الجماهير الشعبية بمختلف الوسائل مثل الصحف اليومية والنوادي الأدبية حتى يكونوا على علم بما تهدف إليه، بفتح المدارس القرآنية في مختلف جهات البلاد، وبهذه الطرق استطاع علماء الدين الإسلامي في البلاد التونسية أن يتصدوا لهؤلاء الغزاة، مما دفع الإدارة الاستعمارية إلى وضع مخطط عشريني لإصلاح التعليم في تونس من سنة 1949 إلى 1969م.

- كان للصحف والجمعيات منذ الحماية إلى غاية الاستقلال دوراً كبيراً في نشر الوعي وكانت روافد هامة في غرس الروح الوطنية لدى الشباب للوقوف في وجه الاحتلال ومقاومة برامجه الهدامة.

- ساهم الشعراء التونسيون في معالجة قضايا البلاد السياسية فكانت لهم مواقف من الاستعمار وسياسته، من خلال نماذج شعرية مختارة التي تتبعت أحداث بلادهم منذ مطلع القرن العشرين، وشاركوا مشاركة إيجابية في تحليل سياسة المستعمر وتصوير مظالمه واعتداءاته في توعية الشعب واستنهاضه حتى يصمد ويقاوم.

- لقد ساهمت الحركة الأدبية والفكرية في تحرير الوعي الوطني والتصدي للسياسة الفرنسية بمختلف توجهاتها سواء من خلال الجمعيات أو النوادي الأدبية أو العمل المسرحي أو الصحف والمجلات.

- مساعدة المعاهد الدينية والمؤسسات العلمية على بروز ونمو نخبة سياسية من بداية الحماية إلى الحصول على الاستقلال الوطني سنة 1956م.

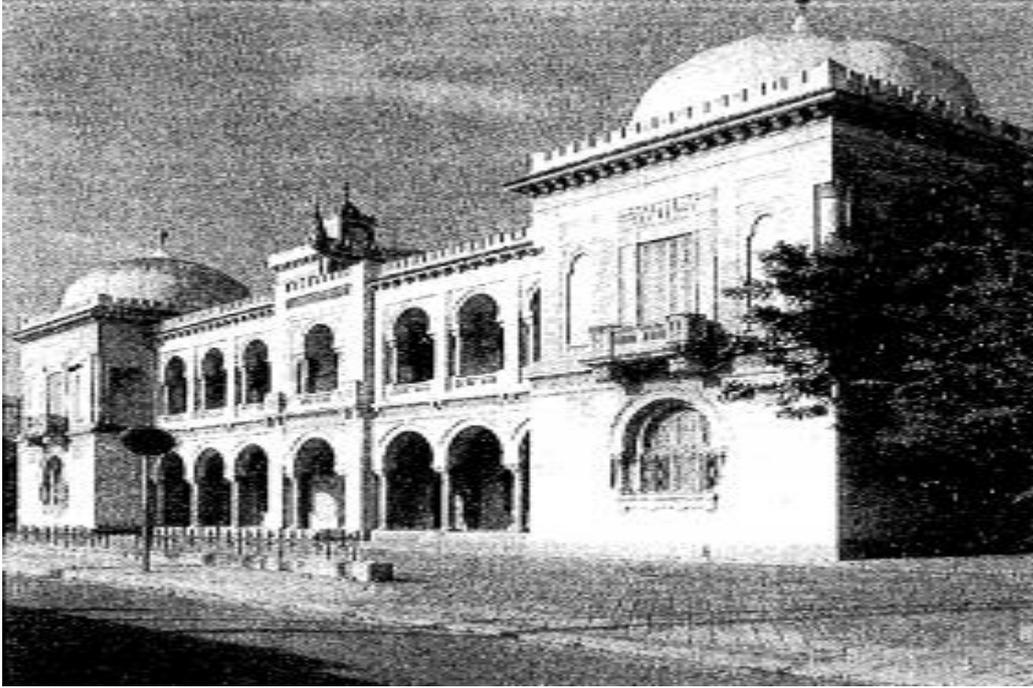
الملاحق

ملحق رقم 01: جامع الزيتونة¹



¹ - أحمد القصاب، تاريخ تونس المعاصر 1881-1956م، ط1، تعريب حمادي الساحلي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986م، ص336.

ملحق رقم 02: المؤسسات العلمية¹



المدرسة الصادقية



المدرسة الخلدونية

¹ عزيز عبد الكريم، المرجع السابق، ص ص 42-120.

ملحق رقم 03: يمثل نصب تمثال الكردينال لافيغري في تونس¹



¹ خليفة الشاطر، المرجع السابق، ص 92.

الملحق رقم 04: المؤتمر الأفخارستي¹



اجتماع الوفود المشاركة في المؤتمر الأفخارستي وهي حاملة أزياء مثيرة للشعور الديني للتونسيين



تظاهرات المؤتمر الأفخارستي بقرطاج (ماي 1930)

¹ خليفة الشاطر، المرجع السابق، ص 95-96.

ملحق رقم 05: المطالبة بإصلاح التعليم الزيتوني¹



من الحركات الجماهيرية ، تجمع طلبة الزيتونة سنة 1910



إصلاح التعليم الزيتوني في صلب
إهتمامات الصحافة الوطنية

¹ - الهادي جلاب، المرجع السابق، ص 54-92.

ملحق رقم 07:

مقال الطاهر الحداد حول التجنيس في جريدة الأمة.

التجنيس نكت للعهد

فتح باب التجنيس للتونسيين اقل ما فيه أن فرنسا تتمنى أن يصير التونسيون في يوم ما فرنسيين، وهل هذا وحده لا يكفي لإثبات رغبة الحكومة الفرنسية في القضاء على الجنسية التونسية والدولة التي تمثلها والتي اعترفت بما في المعاهدات وأعلنت احترامها فيها بل والدفاع عنها، وهذا وحده لا يكفي أيضا لإثبات أن هذه الرغبة-المريعة التي لا يلزم أن نصفها- تناقض بوضوح تام معاهدات الصلح والمودة التي وقع تأكيدها وتجديدها كما نص الفصل الأول مما يسمى معاهدة باردو .

يقولون بعد هذا" أن مشروع اختياري وقد كتمت الصحافة العربية عن قرائها هذا المعنى"، على رسائلكم يا هؤلاء فإن أمة قبض المتغلب بيده على أرزاقها، ومسك بيده الحديدية كل السلط التي لها، وأنزل عليها من مطارق عذابة ما جعلها بائسة جائعة، أمة كهذه لا تستطيع أن تمسك نفسها ولا تندفع بحكم القهر طلبا للخبز ولو كان بالمستنقعات، سيما وقد فتح لها المتغلب أبواب المطاعم للحصول على الخبز وأكثر منه متى دانت بمشروعه وصارت من رعاياه، لا يمكنكم أن تقولوا، "أن المشروع اختياري" لان المراقبين والعمال وخلفاءهم والكواهي ومشايخ التراب المتولين بإدارة الاحتلال قد أرققوا ومازالوا يرهقون التونسي.

لا يمكنكم أن تقولوا" أن مشروع اختياري" لان التونسي بصفته وطنيا لا يصادف حقا ولا كرامة في جميع الإدارات الدولية وحتى الشركات الحرة الفرنسية التي تتمتع بامتيازات لا تحد.

ولا يمكنكم أن تقولوا" أن المشروع اختياري" لان المحاكم التونسية عدلية وشرعية ولا يلاقي فيها التونسي غير إضاعة الوقت والمال واشتباة الحق وضياعه بسبب نقص القانون واختلال النظام وتدخل الأيدي الأجنبية، والإطلاق للمحاكم الشرعية في اختيار نصوص الأحكام بدل أن تضبط في مجلة متحدة الحكم.

هذه الحالة الفاجعة السائر النامية بإرادة الاحتلال وتحت رقابته هي التي ستوقف التونسي مبهوتا وتجعله ساهيا من خصائصه الأدبية والتاريخية وتنسيه كل شيء حتى الله الذي ألهمه الإسلام وانزله به مكانا عليا.

الطاهر الحداد "جريدة الأمة"

عدد 50-13 نوفمبر 1923.¹

¹ - الطاهر المناعي، المرجع السابق، ص ص 362-363.

قائمة المصادر والمراجع

❖ قائمة المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم

أولاً: المصادر.

• الكتب باللغة العربية:

- 1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج5، دار الكتاب العربي، بيروت، 1965م.
- 2) ابن خلدون عبد الرحمان، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج3، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1968م.
- 3) ابن عاشور محمد الطاهر، أليس الصبح بقريب التعليم العربي الإسلامي، ط1، دار سحنون، تونس، 2006م.
- 4) ابن عاشور محمد الفاضل، الحركة الأدبية والفكرية في تونس(في القرنين 1314هـ/1920م)، الرشيد للنشر والطباعة، تونس، 2009م.
- 5) البرزلي، فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتن والحكم، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002م، ج5.
- 6) ثامر الحبيب، هذه تونس، مطبعة الرسالة، د. ط، د. د. ن، د. س. ن.
- 7) الثعالبي عبد العزيز، تونس الشهيدة، ط1، ترجمة وتقديم، سامي الجندي، دار القدس، بيروت، 1975م.
- 8) الخضر محمد حسين، تونس وجامع الزيتونة، جمع وتحقيق علي الرضا، دار التونسية، تونس، 1971م.
- 9) الدقي نور الدين، حركة الشباب التونسي، المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس، 1999م.
- 10) (—، —)، تنظيم الحكم بتونس في الفترة الحماية الفرنسية 1881-1956، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، 1998م.

- 11) الزملي الصادق، أعلام تونسيون، ط1، تقديم وتعريب، حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.
- 12) السنوسي أبي عبد الله بن عثمان، مسامرات الظريف بحسن التعريف، ط1، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج3.
- 13) الضياف بن أبي احمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان، مج2، الدار العربية للكتاب، 1999م، ج4.
- 14) الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، عبد السلام جاسوس، القاهرة، 1948م.
- 15) القليبي محي الدين، ظاهرة مريبة في سياسة الاستعمار الفرنسي، المكتبة السلفية، القاهرة، د س ن.
- 16) القيرواني أبي عبد الله القاسم الرعيني، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تونس.
- 17) المدني أحمد توفيق، حياة كفاح، البصائر الجديدة، الجزائر، 2013م، ج1.
- 18) عبد الوهاب حسن حسني، خلاصة تاريخ تونس، ط3، مطبعة دار الفنون تونس، تونس، د س ن.

• كتب باللغة الأجنبية:

- 1)18 Boudali Nouri, protectorat et indépendance, imprimerie Al asria, Tunis, 1992.

• المجالات والجرائد:

- 1) بن عيسى الطيب، "المعاهد الإسلامية الجامعة"، المجلة الزيتونية، مج6، تونس، 1942م، ج3.
- 2) بن محمود محمد المختار، "حكم الله في التجنيس"، مج1، مجلة الزيتونة، تونس، 1936م، ج1.
- 3) (—، —)، "المقدمة"، مج1، مجلة الزيتونة، تونس، 1936م، ج1.
- 4) التميمي عبد الجليل، "دور المبشرين في نشر المسيحية بتونس 1830-1881م"، المجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد3، 1975م.
- 5) الجنوبي علي، "سير الحركة العلمية والثقافية بتونس، مجلة البصائر"، الجزائر، العدد294، 1955م.
- 6) ريشارد ماكن، "لوي ماشوال والإصلاح التربوي بتونس خلال السنوات الأولى للحماية الفرنسية"، المجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد3، 1975م.
- 7) الشرفي عبد المجيد، "الحركة التبشيرية في تونس خلال القرن التاسع عشر"، حوليات الجامعة التونسية، تونس، عدد8، 1971م.

ثانيا: المراجع:

• باللغة العربية:

- 1) بن قفصية عمر، أضواء على تاريخ الصحافة التونسية 1860-1970، دار بو سلامة للطباعة والنشر، تونس، د.س.ن.
- 2) الشريف ابن الحاج عثمان البشير، أضواء على تاريخ تونس الحديث 1881-1924، ط1، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 1981م.
- 3) اللولب حبيب حسن، أبحاث ودراسات في تاريخ المغرب العربي المعاصر، وزارة الثقافة، الجزائر.

- 4) مالكي أحمد، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، 1993م.
- 5) التليلي العجيلي، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881-1939)، كلية الآداب بمنوبة، جامعة تونس، 1992م.
- 6) الجابري محمد صالح، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962م، دار الحكمة الجزائر، 2007م.
- 7) الجابري محمد عابد، التعليم في المغرب العربي دراسة تحليلية نقدية لسياسة التعليم في المغرب وتونس والجزائر، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1989م.
- 8) الخوجة بن محمد، صفحات من تاريخ تونس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.
- 9) الزركلي خير الدين، الأعلام، ط1، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، 2002م، ج2، ج5، ج6.
- 10) الزيدي علي، الزيتونيون دورهم في الحركة الوطنية التونسية 1904-1945، ط1، مطبعة دار نهى، تونس، 2007م.
- 11) العرفاوي خميس القضاء والسياسة في تونس زمن الاستعمار الفرنسي 1881-1956، ط1، دار صامد للنشر والتوزيع، تونس، 2005م.
- 12) العقاد صلاح، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر الجزائر، تونس، المغرب الأقصى، ط6، مكتبة الأنجلو المصرية، 1993م.
- 13) العمراني محمد الكدي، فقه الأسرة المسلمة في المهاجر (هولندا أنموذجا)، دار الكتاب العلمية، بيروت-لبنان، د. ت. ن. ج2.
- 14) الغابري عبد الباسط، المؤسسة الزيتونية والإصلاح، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، د. ب. ن. 2015م.

- 15) القصاب أحمد، تاريخ تونس المعاصر 1881-1956م، ط1، تعريب حمادي الساحلي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986م.
- 16) بنبليغيث الشيباني، أبحاث في تاريخ تونس الحديث والمعاصر، ط1، مكتبة علاء، صفاقس - تونس، 2008م.
- 17) بوزغة محمد، شيخ الإسلام محمد العزيز جعيط حياته. إصلاحاته. وآثاره، الدار المتوسطة، تونس، 2010م.
- 18) جلاب الهادي، المجتمع التونسي بين التأصيل والتحديث 1881-1956، تونس، 1998م.
- 19) (____، ____، ____) ، النخب الاقتصادية التونسية (1920-1956) ظروف نشأتها وأوضاعها، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، جامعة تونس الأولى، 1999م.
- 20) خالد أحمد، أضواء من البيئة التونسية على الطاهر الحداد ونضال جيل، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985م.
- 21) خالدي مصطفى وفروخ عمر، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، منشورات المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 1986م.
- 22) خلف التميمي عبد المالك، أضواء على المغرب العربي رؤية عربية مشرقية، تصدير نصر الدين سعيدوني، دار البصائر، الجزائر، 2011م.
- 23) درمونة يوسف ، تونس بين الاتجاهات، دار الكتاب، مصر، 1953م.
- 24) (____، ____، ____) ، تونس بين الحماية والاحتلال، مطبعة الرسالة د.ب. ن، د. د. س. ن، د. ت. ن.
- 25) راغب السرجاني، قصة وتاريخ تونس من البداية إلى ثورة 2011م، ط1، دار الأعلام للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

- 26)رشاد الإمام، سيرة مصطفى بن إسماعيل، وزارة الشؤون والثقافة، تونس، 1981م.
- 27)سريب نور الدين، "دور الصادقيين في حركة التحرير الوطني"، أعمال الندوة الأولى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس، عدد1، 1981م.
- 28) الشاطر خليفة وآخرون، تونس عبر التاريخ الحركة الوطنية ودولة الاستقلال، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 2005م، ج3.
- 29)الشايبي لطفي، "خلفيات البعد الثقافي والاجتماع والتربوي لجمعية الشبان المسلمين بتونس(1944-1947)"، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس، العدد5، 1991م.
- 30) شترة خير الدين، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة1900-1956، دار البصائر للنشر، الجزائر، 2008م، ج1.
- 31) الصخراوي الأزهر، مخطوط السياسة الاستعمارية الفرنسية بتونس من برنار رو إلى شارل سومانيه (1881-1956)، ط1، تقديم الهادي تيمومي، دار المسير، 2018م.
- 32) طبابي حفيظ، البناء الوطني وتحديات الاستقلال، الدار التونسية للكتاب، تونس، 2011م.
- 33)عبد السلام أحمد، المدرسة الصادقية والصادقيون، ط1، بيت الحكمة، تونس، 1994م.
- 34)عبد الكريم عزيز، نضال شعب أبي تونس1881-1956، مركز النشر الجامعي، تونس، 2001م.
- 35)عبد الله الطاهر، الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية جديدة1830-1956، ط2، دار المعارف، سوسة- تونس، د. س. ن.
- 36)الغربي محمد الأزهر ، تونس رغم الاستعمار، ط1، دار نقوش عربية، تونس، 2013م.
- 37) قدورة زاهية، تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت -لبنان، 1985م.

- 38) مجموعة من الباحثين، تاريخ الأدب التونسي الحديث والمعاصر، ط1، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة)، تونس، 1993م.
- 39) محجوبي علي، انتصاب الحماية الفرنسية بتونس، تعريب، عمر بن ضو، دار سراس للنشر، تونس، 1986م.
- 40) محظوظ محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1994م، ج2.1.
- 41) المرزوقي محمد والجيلاني بن الحاج احمد، معركة الزلاج، ط1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1974م.
- 42) مكتب استعلامات اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي، مأساة عرش، د ط، د دن، د س ن.
- 43) مناصرية يوسف، دور النخبة التونسية في الحركة الوطنية التونسية بين الحربين العالميتين، دار هومة.د.ب.ن.
- 44) (—، —) ، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832-1847م، مؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م.
- 45) المناعي الطاهر، المثقفون التونسيون والحضارة الغربية في ما بين الحربين العالميتين (1919-1939)، ط1، دار المعارف، سوسة-تونس، 2001م.
- 46) الهمامي حمّة ، المجتمع التونسي (دراسة اقتصادية اجتماعية)، ط1، دار صامد للنشر والتوزيع، صفاقس- تونس، 1989م، ص42
- 47) الهادي الشريف محمد، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، ط3، تعريب محمد الشاوش، دار سراس لنشر، د.ب.ن، د.س.ن.

• كتب باللغة بالأجنبية:

- 1) Kassab Ahmed ,Ahmed Ounaïes, **Histoire générale de la Tunisie, l'époque contemporaine (1881-1956)**,Sud Editions, Tunis, Tome IV,2010 .
- 2) Julien André Charles ,et la Tunisie devint independante 1951-1957,les editions J.A/S.T.D.France,1985.
- 3) Victor Guerrin, **la France catholique en Tunisie a malte et en tripolitaine**,tours,1890. /http://gallica.bnf.fr.

• المجلات:

- 1) بوطيبي محمد، "الجمعية الخلدونية التونسية بين الرمزية التاريخية والمشروع العلمي التونسي"، مجلة أفاق فكرية، العدد 09، مج 4، 2018م.
- 2) (—، —) ، التجنيس في تونس بين القبول والمعارضة خلال فترة الحماية الفرنسية 1881-1956، مجلة أبعاد، جامعة وهران 2، العدد 7، 31 ديسمبر 2018م.
- 3) جرفال كمال، "الطرق والزوايا بسوسة وموقفها من انتصاب الحماية الفرنسية بتونس من خلال تقارير ضابط جيش البر الفرنسي"، مجلة روافد، العدد 2، 1896م.
- 4) حباسي شاوش، "فرض الحماية الفرنسية على تونس"، مجلة الدراسات التاريخية، الجزائر، العدد 4، 1994م.
- 5) حباسي شاوش، آراء واقتراحات الكردينال لافيغري في السياسة الاستعمارية في الجزائر وتونس، مجلة المبرز، الجزائر، 2001م.
- 6) سريب نور الدين، "ممارسة ثقافة وجمعنة سياسة: المثال التونسي"، إنسانيات، 1999م.
- 7) سولم احمد، "التعليم الاستعماري في تونس خلال الحماية الفرنسية 1881-1956"، دورية كان التاريخية، الكويت، العدد 34، ديسمبر 2016م.
- 8) شيخة جمعة، "الوقف بين التنظير والتطبيق والإلغاء: التجربة التونسية نموذجا"، جامعة تونس.

(9) عليوي جمعة فرحان الخفاجي ووسام هادي عكار عظيم، "السياسة الفرنسية حيال تونس(1881-1913)، مجلة الأستاذ، بغداد، العدد214، 2015م.

(10) عواد إبراهيم خضر العبيدي و حسين علي خضير العبيدي، "الخلافات الأيدلوجية

(11) عقيب محمد السعيد، "المؤتمر الافخارستي بقرطاج ماي1930م وتطور العمل الوطني بتونس"، مجلة البحوث والدراسات، الجزائر، عدد22، صيف2016م.

(12) عواد إبراهيم خضر العبيدي و حسين علي خضير العبيدي، "الخلافات الايدلوجية الفكرية في الحركة الوطنية التونسية 1933-1937م"، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العدد4، مج23، 2016م

• الرسائل الجامعية:

(1) الميزوري العروسي، التعليم في تونس منذ قيام الدولة الحسينية إلى انتصاب الحماية، (رسالة دكتوراه)، إشراف وسيلة بلعيد بن حمدة، المعهد الأعلى لأصول الدين، جامعة الزيتونة، تونس، 1994م.

(2) الونيسي عبد الرحمان، السياسة الصحية بتونس في عهد الحماية(1881-1939)، (رسالة لنيل شهادة الدكتوراه)، إشراف خليفة الشاطر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، 2002-2003م.

(3) بوزيان الحسين بن محمد، المدارس القرآنية بتونس من عهد الاستعمار إلى الاستقلال1881-1956م، (مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه حلقة ثالثة)، إشراف أبو القاسم العليوي، المعهد الأعلى لعلوم الدين، جامعة الزيتونة، تونس، 1996م.

(4) بوطيبي محمد، دور المثقفين الجزائريين في الحركة الوطنية التونسية ما بين 1900-1930، (مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر)، إشراف بوعزة بوضرساية، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2007-2008م.

- (5) تليجاني محمد، الفعل الإنساني عند الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، (مذكرة لنيل شهادة الماجستير)، إشراف سالم الطباي، كلية المعهد الأعلى لأصول الدين، جامعة الزيتونة، تونس، 2001م.
- (6) خليفي عبد القادر، أحمد توفيق المدني ودوره في الحياة السياسية والثقافية بتونس والجزائر 1899-1983م، (رسالة لنيل شهادة الماجستير) إشراف عبد الكريم بوصفصاف، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، 2006-2007م.
- (7) رزوق محمد الطيب، البعد المغربي للحركة الوطنية التونسية من خلال جريدة الإرادة 1948-1955م، (شهادة لنيل الماجستير)، إشراف، لزهرة بديده، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، 2013-2014م.
- (8) الشريفي نصر بن علي، النظم التربوية في عهد الحماية، (رسالة دكتوراه)، إشراف محي الدين رشاد، دك، جامع الزيتونة، تونس، 1989م.
- (9) عبد النور فتيحة، الروابط الثقافية بين الجزائر وتونس ما بين 1860-1954، (مذكرة لنيل شهادة ماجستير)، إشراف صبيحة بخوش، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، 2013-2014م.
- (10) غانمي ريم، الحضور المسيحي بتونس من 1881م إلى 1930م، (رسالة لنيل شهادة الماجستير)، إشراف نصر الجويلي، المعهد الأعلى لأصول الدين، جامعة تونس، 2005-2004م.
- (11) الغول الأخضر لطيفة، الإسلام الطرقي والتحولت السياسية والاجتماعية بتونس في العهد الاستعماري 1881-1934، (رسالة لنيل شهادة الدكتوراه)، إشراف علي بن حسن المحجوبي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة التونسية، تونس، 1990م.
- (12) قارة فاطيمة، موقف الطرق الصوفية التونسية من الحماية الفرنسية 1881-1939، (رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر)، إشراف يحيوي

مسعودة، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر2، 2011-2012م.

13) قدور محمد، السياسة التعليمية الفرنسية في تونس 1883-1939، إشراف، شاوش حباسي، (رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر)، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2003-2004م.

14) مريقي عامر، جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين دراسة تاريخية في مسيرتها النضالية 1934-1947م، (مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية)، إشراف مولود عويمر، قسم اللغة والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر2، 2010-2011م.

15) مشرفية مديحة، المدارس الحرة الفرنسية في البلاد التونسية 1886-1886م، (شهادة التعمق في البحث)، إشراف توفيق بشروفي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية شارع 9افريل، تونس العاصمة، ماي1990م.

16) معزة عز الدين، فرحات عباس والحبيب بورقيبة دراسة تاريخية وفكرية مقارنة 1899-2000م، (رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر)، إشراف عبد الكريم بوصفصاف، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة منتوري، 2008-2009م.

• المواقع الالكترونية:

- 1) بوابة مدينة تونس، www.commune.gov.tn
- 2) الموسوعة التونسية المفتوحة، www.mawsouaa.tn
- 3) [/https://iefpedia.com](https://iefpedia.com)
- 4) بحوث مدرسية تثقيفية [/https://thakafouhouth.blogspot.com](https://thakafouhouth.blogspot.com)
- 5) ألترا صوت www.ultrasawt.com
- 6) المكتبة الوطنية الفرنسية الرقمية [/http://gallica.bnf.fr](http://gallica.bnf.fr)

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

الصفحة	العنوان
	الاهداء
	شكر وعرقان
	قائمة المختصرات
9 - 5	مقدمة
الفصل الأول	
تعريف المؤسسات الدينية والعلمية بتونس قبل وبعد فرض الحماية الفرنسية	
11	أولاً: واقع المؤسسات الدينية والعلمية بتونس قبل فرض الحماية الفرنسية
11	1- التعليم التونسي التقليدي
14	2- التعليم التونسي العصري
15	3- التعليم الخاص بالأوروبيين
16	ثانياً: التعريف بالمؤسسات الدينية بعد فرض الحماية الفرنسية
17	1- جامع الزيتونة
24	2- مؤسسة الزوايا والطرق الصوفية
29	3- مؤسسة الأوقاف والأحباس
32	ثالثاً: التعريف بالمؤسسات العلمية
32	1- المدرسة الصادقية
34	2- المدرسة الخلدونية
37	3- جمعية قداماء الصادقية
41	4- النوادي العلمية والفكرية
44	خلاصة الفصل

الفصل الثاني	
السياسة الدينية والثقافية الفرنسية بتونس 1881-1956م	
46	أولاً: السياسة الدينية الفرنسية
46	1- احتواء وحل الأوقاف والاحباس
52	2- سياسة التنصير
57	3- استقزاز السلطات الفرنسية لمشاعر الشعب التونسي
60	4- استهداف القضاء والتشريع الإسلامي
66	5- التقرب من شيوخ الطرق الصوفية
70	ثانياً: السياسة الثقافية الفرنسية
70	1- تهميش التعليم التقليدي
71	2- احتواء التعليم العصري
75	3- إنشاء مدارس فرنسية
78	4- سياسة التجنيس
83	5- التضييق على الصحف والصحفيين التونسيين
88	خلاصة الفصل
الفصل الثالث	
مواجهة المؤسسات الدينية والعلمية للسياسة الدينية والثقافية الفرنسية	
90	أولاً: دور المؤسسات الدينية التونسية في مواجهة السياسة الفرنسية الدينية والثقافية
90	1- إصلاح التعليم الزيتوني
97	2- مقاومتها لسياسة التنصير
99	3- مواجهتها لسياسة التجنيس ودفن المتجنسين في المقابر الإسلامية
104	4- الدفاع عن الهوية الوطنية الإسلامية
107	5- الدفاع عن المقدسات الإسلامية
108	6- الدفاع عن العروبة والإسلام

111	ثانيا: دور المؤسسات العلمية في مواجهة السياسة الثقافية
111	1- التعبئة الشعبية
113	2- مواكبة الحضارة الغربية
117	3- النهوض بالتعليم العربي
119	4- مواجهة سياسة الفرنسة
124	5- مواجهة سياسة التغريب
125	6- مقاومتها الأدبية والفكرية
129	خلاصة الفصل
132	الخاتمة
136	الملاحق
144	قائمة المصادر والمراجع
156	فهرس المحتويات